اللـــــزج

اللـــــــزج

روايـــــــة

د. محمـد سميررجــب

اللـــــزج

اسم الكاتب: محمد سمير رجب
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 1640 / 2019

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

إهـــداء

إلى كل حائر قلق، في عالم محير مربك .. و مدهش أحيانا ..
إلى الأنفس التي ضاعت أو كادت، التي وجدت نفسها أو لم تجد..

إن الجميعَ يحملون معهم بقايا مولدِهم،
اللزوجة وقشور البيض، حتى النهاية!

هرمان هيسه
دميان

(١)
يوم جديد

لا أحسُّ بشيء ولستُ حزينا، الحزنُ هو هذا الذي أنا فيه.

فرناندو بيسوا

تنفتح أجفانه.. ممدّدًا على السرير؛ يسمع صوت تغريد العصافير بالخارج.. يدلّ صوتها المتماوج على تقافزها بين شجرة وأخرى راسمةً صورة صباح جديد.. من خلال فوارق الشباك تنفلت حزمتا ضوءٍ تقعا على ملاءة السرير بجانبه.. متثاقلًا ينهض، متكاسلًا يفكّر.. تتداعى كومة الذكريات والأحداث والتجارب على عقله الأبيض.. يتذكر أنه هو هو وليس شخصًا آخر.. هذا أمر مخيّب للرجاء.. لا يكفي النوم لتغييرنا أو تبديل أقدارنا.. ستستيقظ في النهاية –ومهما طالت نومتك- عند آخر نقطة تركت العالم عندها.. النور وزقزقة العصافير هما الشيء الوحيد الطبيعي الذي يحدث في أيامه الأخيرة منذ ترك عمله لأسباب قال أنها "تكيفية".. لم يستطع مواكبة ركب الفساد العظيم الذي يسوق البلد إلى الخراب المؤكد.. ليس لأنه مصلح اجتماعي أو بطل، لكنه يؤمن بنظرية "الفساد الشخصي"، هكذا كان يسميها.. فليفعل الإنسان في نفسه ما يشاء.. يهلك صحته، يبدّد ماله، ينتحر، يجري عمليات تشوّه ملامحه، يشرب الكحول، المخدرات.. المهم أن تقف دائرة تأثيره وإفساده عليه هو فقط!.. ليس ذنب أحد أنه غير سوي، أو أنه يعاني فراغًا ووحدة مقيمين.. وإيمانًا منه بهذه الفكرة لم يتزوّج حتى اليوم.. الزواج يجعل من حرية

إفساد ذاتك قيدًا.. لأنه سيؤثر في مستقبل وحياة شخص آخر له عوجه الخاص ومزاجه الخاص وجنونه الخاص.. "فلأكن صوفيًّا في عبثي ورعونتي".

يبتلع ريقه فيشعر بجفاف شديد في حلقه.. يتذكر أنه انتوى صيام هذا اليوم من أيام رمضان لكنه كالعشرين يوم المنصرمة يخفق بمجرد الاستيقاظ.. حثته على ذلك أحاديثُ العتق من النار في عشر رمضان الأواخر، سمعها أثناء خطبة جمعة وهو في بيته.. يشعل سيجاره، يتجه إلى الثلاجة، يلتقط علبة البيرة الأخيرة.. يتجرعها مرة واحدة.. يخطّ عمود البيرة المنسكب من طرفي فمه طريقين ضيقين يضيعان بتجاوز ذقنه ليسقطا على كرشه الصغير متخللين طريقًا جديدًا وعرًا من شعر كثيف جدًّا.. تحسبه شعر غوريلا..

يتساءلُ عن حكمة جعل البيرة والسيجارة مفطرين للصائم.. إنهما يشعلان الباطن ويجعلان مهمة الصيام عسيرة وأكثر تحديا.. طيب، هل يجوز للمضطر مثله إلى الإفطار على كأس بيرة وسيجارة، القضاء بعد رمضان؟ الفقهاء سيختلفون وربما يستشيطون من سؤال أبله كهذا.. لكن أكيد، الله يمتلك حلولًا أعظم من الفقه والفقهاء.. حين يتسع الفقه أو يضيق يكون للمولى تقديرات أكثر سعة وأكثر رحابة.. الحمد لله على نعمة الدين.. فليشرب إذن كأسًا صغيرًا جدًّا من بقايا زجاجة الفودكا التي قاربت على الانتهاء.. ولينظر في مشروعية قضاء الكحولي بعد رمضان في وقت آخر!.

الأكثر تأكيدًا من كل هذا أنه يتساءل، لكنه أبدا لن يقضي ما فاته.. إن حياته الفارغة تمتلئ بالأفكار التي سريعًا ما تأتي وسرعان ما تذهب ثم لا يبقى إلا الفراغ مرة أخرى أو ما هو أدق من الفراغ: العدم.

يقسم أيمانات غلاظ أن قعب التيكيلا يجعله يتحد بالله ويعرفه بشكل خاص جدًّا أكثر من قراءة القرآن.. الغوص حتى النخاع فيما نحب، حتى ولو كان حرامًا، يجعلنا نقترب من الحبيب الأول الذي عنه وبه جئنا.. حين يغيب وعيه نهائيًا يقول لأصحابه: لقد رأيت الله في بارات واشنطن وأمستردام ولندن أكثر مما رأيته في مساجد القاهرة أيام رمضان!.. يهبت الحاضرون ويستغفر كل منهم في سره ثم يمر الموقف كأنه لم يقع.

يسميه رفعت "أبو الزنادقة".. أما مدحت فيقول عنه: إنه بشار بن برد العصر الحديث، لا يشبهه في شعره بل في زندقته.. إنه بائس ورث عنه ضعة التجديف ولم يرث مجد الشعر.. لقد تجاوز في شطحاته كل ما خطه أبو نواس وحماد عجرد.. كان يستميله جدًّا قول أبي نواس:

دع المساجد للعباد تسكنها.. وطف بنا حول خمار ليسقينا

ما قال ربك ويل للذين سكروا.. ولكن قال ويل للمصلينا

لا يكف عن الاستشهاد بهذين البيتين بمناسبة وبدون مناسبة.

وحين يفتح أحدهم حديثا عن أحمد شوقي يقول: أليس هذا مؤلف بيت الشعر العظيم "رمضان ولى فهاتها يا ساقي.. مشتاقة تسعى إلى مشتاق؟".. هات يا متر واحد أبسنت جديد على شرف أمير الشعراء..

يضحك ويضحكون جميعا.

يخرج عن تساؤلاته.. باستنتاج مفاده: الله أعظم من كل هذا الهراء.. نحن حددنا حياتنا بالقوانين والشرع.. وهو أعظم من كل القوانين وكل الشرائع.

يتجه إلى الحمام.. يفتح المحبس الذي يغلقه دائما لأن ماسورة ترشح بشكل رهيب وتغرق الأرجاء.. لا يجد دافعًا لاستدعاء سبّاك يصلحها.. يجد صرصارًا أسود قبيحًا فيمسك بالشبشب ليضرب نفسه به على رأسه.. ثم يترك الشبشب والصرصار على راحتيهما.

ينهي في الحمام مشكلة عويصة ملحّة.. أمنية حياته أن يقذف ذات يوم ماءه على النيش والقائمة والقسيمة وحماه المجهول والمأذون وزوجته التي لم تخلق أساسا.. بل ويفكر أحيانًا في اغتصاب حماته ليلة زفافه.. يضحك من هذا التصوّر بصوت عالٍ حتى ولو كان وحده.

إن الأشياء سهلةٌ بسيطة، فلمَ كل تلك التعقيدات أو هي معقدة جدًّا فكيف نختزلها، أيًّا ما كان الأمر فنحن نفكر فيها بغير ما هي عليه، نميل للتعقيد أو التبسيط ولا نواجه الحقيقة نفسها.. الزواج مأساة الإنسان التي لا حل لها إلا ما قاله شوبنهور عن التوقف الفوري عن جعل الحياة كما شبهها أحدهم: أرحام تدفع وقبور تبلع.

يؤمن بنظرية "الانقراض القصدي" التي تحاول وضع أساس لطريقة يستطيع بها الإنسان الانقراض بشكل بطيء وتدريجي.

يخرج من الحمام.. يتجه إلى الكمبيوتر يفتحه.. ترعد الكيسة بصوت جنوني.. ينفخ من خلال فتحاتها لتهب عاصفة ترابية تصفع وجهه.. يتوقّف الجهاز ثم يسمع صوت الرامات المثير للغضب.. يفصل الكهرباء.. يحضر مفكًّا، يشق بطن الكيسة.. يخرج الرام ينظفها وبطريقة ميتافيزيقية يخبطها خبطتين ثم يضعها مكانها.. يشغل الجهاز مرة أخرى فيشتغل أخيرًا.

بعد كل هذا المجهود ينسى لماذا فتح الكمبيوتر أساسًا.. فيغلقه.. ثم يتذكر فجأة.. فيفتحه وأمره لله.. كابل الباور يشيط.. فليتذكر حين ينزل شراء واحد جديد.

يفتح فايل وورد اسمه ".. ".. هي رواية يكتبها منذ أربعة أعوام.. يتصفح الرواية يراجع عدد الكلمات النابية والمشاهد الجنسية، يطمئن إلى أن الشتائم واضحة وفاضحة وليس هناك ما هو أبذء منها ثم يكتب سطرا:

لقد قضى ليلته يتفكر في ابنة الزواني هذه.. ماذا تريد هذه العاهرة منه؟ أي حب تتحدث عنه.. أي خير تجده فيه.. سينتحر لو وجد ذرة معنى لما يعيشه.

يغلق الفايل.. يفتح موقعا إباحيًّا يتأمل من خلاله جميل صنع الخالق.. يخط على ورقة فكرة جديدة: عديمو التربية الذين يحرّمون على أولادهم مشاهدة هذه المواقع، ماذا يمكنني أن أقول فيهم؟

سيكتبها حين يفتح الفيس بوك كبوست للعشرة أصدقاء الوحيدين الذين يصاحبهم على النت.. العشرة هم: رفعت، مدحت، فتاة ليل، ملحد، فيلسوف، كاتب، شاذ، شاذة، فتاة محترمة، رجل يدعي الألوهية.

لقد تخلص من صفحته القديمة التي كانت تعج بآلاف الأصدقاء الذين تعرف عليهم خلال سفرياته المرتبطة بمجال عمله الذي تركه أو طرد منه.. صنع هذه الصفحة خصيصًا لحكمة لا يعرفها.. ولا يريد أن يعرفها.. ولولا أنه يحتاج لشاهدين على زندقته يشهدان أمام الله يوم القيامة على أن كل حماقاته ما كانت إلا حبًّا خالصًا له، لما أضاف مدحت ورفعت.. حتى حين أيد وبشدة الرجل مدعي الألوهية وأعجب بأفكاره ما كان إلا محبًّا له هو الأعلى.. الحضارة اليونانية علمتنا أن الإنسان إله إلا قليلا وأن الإله إنسان إلا قليلا.. فتاة الليل لا بد أن تكون ذات يوم فتاة نهار، إنها رمز الأمل له، رمز التوبة حتى وهي في قمة غيها.. الملحد دليل سعة مدارك الله وضيق أفق الإنسان، إنه ينكر وجوده لكنه سبحانه يطعمه ويرزقه ويجعل له شأنًا عظيمًا رغم ذلك.. الفيلسوف، الرجل الوحيد القادر على أن يعرفنا على الله بأشكال مختلفة، بطرق جديدة، هو لا يحب أن يقول له شيخ، انظر ها هو الله هناك مشيرًا إلى

السماء.. بل يحب الفيلسوف الذي يقول له: تعال معي، سنخوض طريقًا طويلا ستتعرف من خلاله على أخص خصائص الذات الإلهية، من الجميل أن نعرف الشيء وأن نصل إليه بأكثر من طريق.. الشاذ هو الاستثناء المشير إلى لا نهائية حيل الله.. كما خلق آدم دون أب أو أم، وخلق عيسى بلا أب، ما المانع أن يخلق شخصا ما من أب بلا أم؟ ها؟ هكذا تكتمل الدائرة.. الشاذة هي رمز الحب غير المشروط، تكفي مداعبات خفيفة وصرخات حب مكتومة لتنتهي العلاقة وليبقى الحب الحقيقي دون طمع في إشباع تام.. هذا الحب غير المشروط إلهي في حد ذاته.. الفتاة المحترمة هي كل ما ليس هو.. محترمة كانت، بعد معرفته ربما تصير غير محترمة، هذا التقلب ما بين الأحوال –التأرجح بين الاحتمالات- هو صيرورة الحياة، الخلود والبقاء الإلهي الدائم.. أما الكاتب فمن يسجل قصة حب الإنسان ربه.. نعم في أقصى ثورات الإنسان ضد إلهه كان محبًّا له.. كان نيتشة يقول: لقد مات الإله، لكنه لم يصرح بما يقول لسان حاله: ليته لم يمت.. ليته لم يمت.. ليته بقى ومت أنا.. وصلنا النصف الأول من الجملة ولم نستشف بشكل كاف ما وراء الكلمات، لم نع النصف الثاني.

يفتح فايل الوورد مرة أخرى.. ينظر للسطر الأخير من جديد.. يقوم بتعديلات جذرية.. لتصبح الجملة:

لقد قضى ليلته يتفكر في ابنة ".. " هذه.. ماذا تريد هذه "..." منه؟ أي حب تتحدث عنه.. أي خير تجده فيه.. سينتحر لو وجد ذرة معنى لما يعيشه.

ثم يضيف جملة وجدها مناسبة جدا:

لو تريد ممارسة الجنس بشرف فلتأت.. فلتصارحني.. أما الزواج فلا طاقة لي بهذا العهر المقدس!.

ينتشي من هذه الإضافة.. عظيم، هكذا يمكن الانتهاء من الرواية في غضون خمسة أعوام قادمة.

يطرق الباب، يذهب ليفتحه دون أن ينتبه إلى أنه لا يلبس أي شيء على الإطلاق.. يلاحظ ذلك فجأة، فيلف فوطة قصيرة حول وسطه.. يظهر أمامه محصل الكهرباء:

٢٨٠ جنيه.. ومتأخر ١١٥٠ جنيه.

يأخذ الوصل الخاص به ويرجئ الدفع إلى حين ميسرة.. يحذره المحصل من إمكانية فصل الكهرباء عنه.. يشكره ويغلق الباب.. لقد زادت أسعار الكهرباء بشكل لا يحتمل.. لا يدري لم تقوم الثورات أحيانا، ألتزيد الطين بلة؟ حسنا يكاد المواطن يبل سرواله من فرط الأعباء المحتشدة حوله.

يفكر في اسم روايته.. لا بد أن تكون أكثر بذاءة.. لا تكفي كلمة اعتراضية..إن الوضع إباحي بحق.. عملية جانج بانج لا يكف المواطن الغلبان فيها عن أن يكون المفعول به دومًا.. سيهتم بذلك الاسم في وقت لاحق.

لكنه الآن، حالا، في تلك اللحظة، يحتاج لكأس آخر.. كأس آخر أخير.. أو ربما لا يكون أخيرًا.. التعاقب والتوالي والتجدد يجعلون من فكرة "الأخير" وهمًا محضًا.. الأخير دومًا صورة مؤقتة لشيء ما.

(٢)
رفعت

نحن مع مرور الوقت، العيوبُ التي تشكّلنا لا المزايا..

ساراماغو

يمكن اعتبار خالد عقلية عبقرية من الدرجة الأولى.. عددناه أكثر موظفي الشركة كفاءة.. يستطيع القيام بأكثر من مهمّة في آن واحد وبدقة ملفتة وينهيها جميعًا في وقت قياسي.. سماه المدير "الدينامو".. لكن خالد يعترض فيقول: بل أنا هيرمس.. لا نفهم قصده تحديدًا فنفوّتها كما الكثير له.. في زيارة وفد أجنبي للشركة استطاع جذب انتباه أعضاء الوفد بسهولة بالغة، وقد قال عنه بروفيسور هاجارد رئيس الوفد: هذا رأس يجب أن يتشظى، يحمل عقلا خطرًا على الحياة.

امتلك على الدوام آراء غريبة عن الحياة والله والموت.. تقبلناها جميعًا كوجهات نظر مخالفة يمكن قبولها أو رفضها لكن لا يمكن رفض وجودها.. طرائق معرفة الله كثيرة، أكثر من عدد شعر الإنسان.. الكل عرف خالد وأحبوه، كل على حسب قدرته ودرجة تسامحه مع غريب ما يقول.. يعيش وحيدًا مع أبيه، فقد ماتت أمه وهو لم يزل بعد طفلا.. نشأ كدائرة مركزها والده.. تبلورت حياته كلها وتشكلت حوله.. يقبل ويدبر، يروح ويجيء مطمئنًا أن قوته هنا، في منزله.. يستمد الطاقة والإيجابية منه ثم ينزل ليباشر الحياة، خالد يستطيع أن يباشر سبع حيوات في نفس الوقت لكنه يفضل الركون مكتفيًا بربع حياة ليقلل الملل والمخاطر والمجازفات الممكنة.

لا أحد يعرف الكثير عن عصمت والد خالد.. ثمة ضباب مقيم حوله، دومًا المعلومات عنه منقوصة.. عصمت أستاذ أدب إغريقي ولاتيني لكن لا نعرف في أي جامعة تحديدا.. يتنقل من جامعة إلى أخرى، ينتدب هنا وهناك، يسافر ويرجع بدون دلالة أو ضابط.. من كثرة ترددي على خالد أدركت أن والده شخصية سمِجة، لا يمتلك بشاشة كبار السن المعروفة أحيانًا، ولا حدس من جرب من الدنيا وذاق.. حادّ الطباع، يشعر بالقرف كلما زرنا خالدا.. فيه كبرياء لا مبرر له، منتفخ على الدوام يكاد يفرقع من فرط الامتلاء بذاته.. يرطن بألفاظ لاتينية لا يفهمها غير خالد.. لكن رغم كل شيء هو الشيء الوحيد الباقي لابنه المأزوم.. لا خيارات أمامه.. لو كان أبوه حفيد الشيطان لارتضاه دون اعتراض واحد.

اعتاد خالد –بادئ الأمر- عن طريق سفرياته الكثيرة التابعة للشركة شرب القليل جدًّا من كل أنواع الخمر، لزوم المجاملات وعقد الصفقات والذي منه.. في الواقع كلنا فعلنا ذلك.. اعتدنا التذوق دون المعاقرة.

بعد فترة توالفت روحه مع روح فتاة جميلة جدًّا اسمها "ميساء"، أصغر منه بسبع سنين..هو ضمن كبار قيادي الشركة وهي ضمن موظفي الشركة الصغار الجدد..أقول: توالَفا ولا أقول: أحبها.. لخالد وجهات نظر غريبة عن الحب والزواج.. حين ينزع فتيل قنبلة حياته يريدها أن تنفجر وتهد عليه وحده دون أن يكون معه أحد.. لا يضمن نفسه.. هو تخريبي رغم كل البناء الذي يبنيه، عبثي رغم كل النظام الذي يسير وفقه.. يعلم بيقين لا أدري مصدره أن كل ما هو فيه من نجاح وقتي ولحظي وأن الملحمة والمأساة سيبدآن في وقت ما.. كل قوى الأرض لا يمكنها إيقاف تلك المهزلة.. كان يقول: إن الإعداد والتجهز والنجاح مقدمات انهيار كوني عظيم.. ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

رغم كل وجهات نظره، أوشك -في لحظة طيش كما يقول– على حبها.. كاد يقع في المصيدة حين فاجأته بخطبتها من شخص آخر يعمل في شركة أخرى.. اعتقد أن ما حدث لم يكن سوى أنها أرادت الوصول عبره إلى القمة.. لم يسمعها قط، أرادت أن تشرح له الموقف.. أن تخبره باضطرار اية الفعل.. فلم يصدق.. أضعفت هذه الواقعة من ثقته بالناس أكثر.. هو أساسًا لا يثق بأحد إلا على مضض.. يرى الثقة ضعفًا، والاضطرار إليها ذل.. لا يتأتى لأحد أن يثق بأحد إلا كما تضطره الطبيعة أحيانًا لدخول المرحاض أو أكل لحم الميتة.. فعل استثنائي جدا.. (كان من العجيب جدًّا معرفتنا أن ميساء مظلومة، وأن كل ذلك كذب اختلقه.. ثمة حالة من الاستضعاف والتباؤس يريد دومًا أن يعيشها.. لا أفهم مردّ ذلك أبدا).

إيمانه بالله غريب جدا.. يحبه إلى درجة أنه ينزله من عرشه ويجعله صديقًا له، يجلسان في كافيه ويتسامران.. أحيانًا كما يقول: يتم استدعاؤه للجلوس بجانبه فوق، على العرش.. تذوق طعم النكتار والملبروزيا الإلهيين (لا أعرف ما هذا النكتار والملبروزيا).. لا ندري حقيقة هذا الكلام الذي يهرف به خالد.. أهو مجاز أو يقصده حرفيا؟.. ثمة خلل في طبيعة إيمانه، أو عقله أو كليهما.. لا أدري.. كل ما أستطيع إدراكه أن عقله صنع خليطًا من كل العقائد والتصورات البشرية المختلفة عن الله.. فحين يتحدث عن إله الإسلام تظن أنه يتحدث عن زيوس كبير آلهة الأولمب البصاص، أو ياهو رب اليهود الغضوب، أو عيسى ابن الله الحالم الطيب ،.. يوحّد الله كثيرا، ولا تخلو تصريحاته من شبهات شرك واضحة جدا، حتى للطفل.. أحيانًا تحسبه ملحدًا، حين ينكر بقوة وجود الله.. ثم فجأه وبدون مقدمات يتراجع –دون وعي- عن هذا الشكل من الإلحاد ليرتد إلى إيمانه العجيب مرة أخرى.. وحين تسأله عن إنكاره الله يقول: يا أخي، مصارين البطن بتتعارك!.

تصدمك الإجابة فتنخرس وتسكت.. هكذا هو الحال في أغلب الأوقات حين تتسامر مع خالد.

هو إنسان رقيقٌ جدًّا رغم كل ذلك.. مسالم إلى درجة أنه لا يستطيع قتل صرصار.. لا يؤذي شخصًا أبدا.. كريم لدرجة التهور والتبذير.. يعطي حتى يفلس.. ويستلف حتى يكاد يلقى به في السجن.. يطارد الذين يطلبون معونات مالية.. ويهرب من الذين يقترض منهم.. يريد أن يموت وهو قد أحال أكبر قدر ممكن من المال من جهة الكبار إلى جهة الصغار المطحونين.. تستجوبه: هل أنت شيوعي؟ يتف في الأرض ويستعيذ بالله من هذا الوباء الأحمر.. ثم يقول: أنا إنسان.. روبن هود لو تحب توصيفي.. له وقفات لا تنسى معي ومدحت لا يمكن نكرانها.

هذا الخليط من الغرائب في شخصيته هو ما جعلنا نحبه رغم أي شئ.. ونخاف عليه –أنا ومدحت-.. حين أراد أن يلغي صفحة حسابه بالفيس بوك وينشئ أخرى يضع فيها عشرة أشخاص فقط يتخيرهم بعناية شديدة: اشترطنا عليه أن نكون ضمن العشرة.. نريد أن نتابعه رغم ابتعاده ونطمئن عليه وعلى وهج عقله الذي يذوي.. الهاتف أداة ثانوية جدًّا في حياة خالد.. ربما يدعه يرن إلى آخر الدهر ولا يرد وربما يرد بمجرد أن تنوي الاتصال.. لا يعرف وفق أي مبدأ يقرّر الرد على المتصل أو تجاهله.

وافق رغم تمنعه الشديد.. وقال بعصبية: حاضر حاضر، يا لكم من بلهاء تصدون الناس عن سعة الحياة وتنوعها.

- يا سيدي خليهم ١٢ وإحنا خلينا على هامش سعة الحياة دي.

- أبدا هما عشرة فقط لا غير.. وسأعتبركما لزوم ما لا يلزم في الحياة.. شهود يوم القيامة على أفعالي.. (هكذا كان يعوج لسانه في بعض الحالات النادرة ليرد علينا بالفصحى معطيا ما يقول بعدًا وعمقا).

أضحكنا رغم ألمه الشديد.. ورغم أنه كان يتوارى إلى الظل.. لكني سألته:

- وهي الحياة العظيمة دي فيها مالا يلزم؟
- طبعا طبعا.. الموت.
- الموت ضرورة لازمة.. لو تخيلنا الحياة سفينة ضخمة بيعيش على متنها كل البشر من أيام آدم، كانت ضاقت بينا وغرقت.. ومتنا جميعًا في لحظة.
- وهل هناك ألذّ وأحلى وأحسن من الموت الجماعي.. أن يموت كل الأحباب سويًّا.. كل الشركاء متماسكين.. كل العشّاق وهم ينظرون بأعين ضاحكة إلى بعضهم البعض؟ لماذا لا يعيش الناس جميعًا معًا ثم تنفجر الأرض في لحظة لتضع حدًّا لكل شيء في نفس الوقت.. ثم فليخلق الله أرضا جديدة وبشرًا جديدين لتبدأ الكرة مرة أخرة.
- أنت بتتكلم عن الحب والعشق والشراكة.. ده كلام جديد عليك يا خالد.
- أتحدث بمفردات الحياة التي وضعتموها عنوة.. لكن حتى خالد له عشق وله حب وشراكة لكنها جميعا مخالفة لتصوراتكم.. صديقي يفهم كل شيء وأحاول إقناعه لتغيير خطة الحياة.

ثم أشار بسبابته إلى السماء وسكت.

كلامه ملغِز.. مجرد سماعك له يجعلك تشعر بأنك قد كفرت.. لكن يمكن فهمه بسهولة إذا أحطنا ببعض تفصيلات خالد الخاصة جدا.

كان ذلك الحوار بعد الكارثة التي أحلّت به وجعلته يقدم استقالته ويترك الشركة.. عازفًا عن السماع لأي نصيحة أو التماس أو رجاء.. نعم يخبر الجميع أنه ترك الشركة لأسباب تكيفية.. لم يستطع التأقلم مع أمور غريبة فتم طرده.. لكن هذا من استنتاجات خالد العجيبة التي لا أفهمها حتى الآن.. خالد على أي حال قدم استقالته بإرادته الحرة جدا.. تركنا بعد أن قصمت القشة ظهر البعير.. لم يستطع استكمال المسلسل السخيف.. هكذا أخبرنا فيما بعد.

(٣)
احتياج

ظللتُ وحيدة في انتظار ما أجهله، ومن أجهله، وأحد لم يأت.

باسكال روز

يشتاق خالد إلى لحظات معينة من حياته.. حياته الفارغة من كل شيء.. لا أم أو أخ أو أخت.. أبوه وحيد أبويه.. وأمه وحيدة أبويها كذلك.. هل كانا يحيكان له شركًا ما؟.. هل هما بحق والداه؟ هذا حصار محكم من الوحدة يحيط به من كل مكان.. هل هي صدفة؟ ينظر للسماء فيقول: هل فعلت ذلك بي عن عمد.. أهناك حكمة.. أنتظر جوابك سريعا.

هل ما هو فيه فصل في مسرحية هزلية؟ أين الجمهور، أيكون من فرط اندماجه في الدور انعمى عن الناس الجالسين يتفرجون عليه؟ يتذكر فيلم "عرض ترومان".. يتلفت حوله قليلا.. لا مشاهدات.. لا ثمة ما يريب على الإطلاق.. تبدو حياته طبيعية، لكنّ شيئًا ما يحدث من حوله، لا يعلمه.. مؤامرة تحاك له، أو يحيكها هو بأفعاله دون وعي.. لا يعرف تحديدًا.

يتساءل: "لماذا لم تمت أمي قبل أن تلدني؟.. لماذا من وسط كل البشر يتزوج أبي الوحيد أمي الوحيدة ليحبساني في تيه وحدتهم؟.. هل أنا مريض؟ بارانويا مثلا؟".. حظه النحس يخبره أنه لو مات أبوه وأمه ولم يلتقيا أساسا لجاء هو من رأس صخرة صماء كناقة صالح التي أهرق دمها في النهاية.

تحاصره الأسئلة ولا يجد إجابة واحدة مقنعة.. يتعلم مع الوقت طرق توليد الأسئلة وعدم الاهتمام بالإجابات.. الأسئلة براح والإجابات تحديد وضيق.. علامات الاستفهام كثيرة، ونقاط آخر الجمل والمقاطع قليلة.. إذا كثرت نقاط الجمل التقريرية فاعلم أن هناك خللا.

يذهب لإحضار ألبوم صوره وأبيه.. يجده، يفتحه.. لا أحد سواه ووالده.. يتعجب إذ تظهر فتاة جميلة في إحدى صوره مع والده وكأنها معهم، تعرفهم جيدا، قريبتهم تأخذ صورة تذكارية.. هي غريبة بالتأكيد لكن المصوّر فقط التقط الصورة في التوقيت الخطأ.. أو ربما الصحيح.. إنها على أي حال تشاغله منذ صغره.. يجد في خطئها أو صوابها ملاذًا من فراغه المسموم.. أكثر من مرة دعته نفسه للبحث عنها ليعرف طبيعة اللحظة التي أخذت فيها الصورة.. ماذا كان يدور خارج الكادر.. لكن هل هي حية؟ هل تتذكر لحظة تافهة مرت عليها منذ سنين؟

تقع عيناه على صورته وهو صغير.. أربعة كيلو جرامات تقريبا.. يبحث عن تلك الكيلو جرامات في جبلة هذا البغل الذي أصبح.. يحملق في كرشه.. أترى ذلك الطفل بداخله، داخل هذا الكرش الآمن المستقر؟ هل التهمت ذلك الطفل الذي كنته؟.. أتراه في ذراعي؟.. مؤخرتي؟.. أين اختفى هذا الطفل البرئ المسكين ليظهر ذلك العملاق الذي هو أنا الآن؟ يحتار..ثم يلقي بالألبوم جانبا.

لا يجد صورة واحدة لأمه.. كأنها شجرة اجتثت من فوق الأرض.. وفق معرفته المحدودة كان التصوير موجودا قبل أن يولد ولا بد أن أمه خلفت ولو صورة واحدة من أجل استصدار بطاقة شخصية حتى.

يسأل والده عن الغياب المُقيت لكل ما يحمل ذكرى أمه، حتى صورها، فيجيبه بأن كل شيء ضاع في حريق.

النار لا تأكل كل شيء بشراهة هكذا.. إنها تخلف ولو فتاتًا.. "النار ليست بهذه القسوة يا أبي".. فينسحب الأب غير معقب.

يلقي نظرة على كتاب جواره فيجده الكوميديا لدانتي.. ترجمة حسن عثمان.. يتذكر المقلب الذي حدث لعثمان فيضحك.. لقد مات الرجل تمامًا في نفس يوم وفاة طه حسين.. طبعًا لم يلتفت أحد إليه وضاعت ذكراه وسط ضجة الحزن الكبيرة التي تعلقت بفقدان العميد.. ربما سيكون هو –خالد- صاحب أكبر مقلب يشربه إنسان حين يموت.. يتخيل نفسه ممددًا فاقد النطق والنفس وحيدًا.. لا يعرف أحد عنه شيئًا.. تتعفن جثته.. مقلب في البدء ومقلب في النهاية.. في البداية كان الخازوق وكذلك في النهاية يكون.

يفتح الجحيم.. يضعه جانبا.. تواتيه فكرة.. ماذا لو كان هو أحد أبطال الجحيم.. في أي حلقة كان دانتي لينزله؟.. إن دانتي قد أنزل النبي محمدًا ﷺ، بجلالة قدره، الجحيم.. أفلا يمرمط بأهله هو طرقات الجحيم وحلقاته؟ لماذا أزال حسن عثمان هذا الجزء؟.. واكتفى بالدلالة عليه؟.. من حقّنا أن نفهم الطريقة التي نظر بها دانتي إلى محمد صلى الله عليه وسلّم،.. "يوم القيامة سأجمعهما وأحل الخلاف.. لا يمكن أن تستغني الحياة عن محمد أو عن دانتي.. يمكنها أن تستغنى عني أنا.. أنا أضيف عبئا إليها.. سأحضر سقراط أيضا.. من صغري وأنا أتخيل لقاء بين محمد وسقراط.. سيتفاهمان، وسيخضع سقراط الذي أقر أنه سيترك الفلسفة فقط لو نزل وحي ما".

تحدث بطنه صوت قرقعة فيربّت عليها وكأنه يربّت على كتف طفل.. يتذكر كرونوس الجبار الذي ابتلع أولاده كي لا ينقلبوا عليه ويأخذوا العرش منه.. شربة زيت خروع استطاعت أن تجعله يدفعهم جميعا خارجا.. لو شرب هو الخروع فماذا يدفع غير أكوام من الكحول والدخان؟

في الأنشودة الثلاثين: أنشودة مزيفي الأشخاص والكلام والنقود، يجد خالد ورقة مكتوبة بخط يده.. تستحضر الورقة وقت أنهى الكوميديا الإلهية وطلب منه والده استخدام أسلوب دانتي لكتابة قطعة ساخرة.. ثلاثة أشهر من قراءة دانتي كفيلة بجعلك دانتيا حتى النخاع لفترة كافية.. استمر خالد ثلاثة أيام يحاول حبك نص على شاكلة ما خطته يدا دانتي.. فكتب يقول:

و حين سألت عن القاهرة ذاك الرجل الراكب حماره، نظر لي وقال:
هناك حيث يقف الشامخ أبدا، يبول الناس عليه..
ذاك الذي صدعت له مصر القديمة، ويتكون اسمه من مقطعين:
المقطع الأول فعل بمعنى طمس وأودع حيث المثوى الأخير،
والمقطع الثاني كلمة عامية مستحدثة تدل على ليونة الموصوف بها وميوعته [١]
هناك حيث تتعامد الشمس ويجري النهر القديم أبدًا، على بعد محطتين
أو ثلاث، سوف تجد القاهرة، حيث الكل في سكرة يعمهون.

وحين بكيت لحال الناس وأخذتني الشفقة عليهم، زجرني ذاك الذي هو مأمني وقال:
لا تبك يا روح أمك.. كلنا رايحين هناك وهيطلع عين أبونا.. فلا تقلق.

[١]) يقصد تمثال رمسيس الملك.. أما "رمس" الشيء فيعني طمسه.. وأما "سيس" فصفة مستحدثة معروفة.

فقلت: معلمي، ونور عيني، ولماذا نذهب طالما الجو والظروف غير صالحين؟ [1]
-اسمع يا بني: إنك لكي تتطهر ويغفر لك الرب خطاياك لا بد أن تتحمل ويلات الجحيم، وويلات المطهر، يجب أن تتحمل الشقاء وتعاني ويلات السفر، وحين تصل إلى حيث لا مكان لشخص ولا موطئ لقدم، سوف تذوب من الحر، وتصم من الضوضاء وتعاني ويلات المتطهرين.. حينها تكون مؤهلا للنور الإلهي، وتأتيك حبيبتك الخالدة من أحد الأحياء الشعبية، من ذاك الحي الذي عاش فيه الشيخ حسن وساق العجلة رغم عماه، أو من هذا حيث عاشت وردة وقتلت ولدها دون علم.

ستأتيك حبيبتك، لترفع عليك الشبشب وربما حتى المطواة.. فتحرك ولا تتلكأ.

سمى هذه الأنشودة الهزلية الساخرة: أنشودة القاهرين المقهورين.. أعجبه حس السخرية الذي كان يملكه يوما ما.. ضحك.. وهرش فروة رأسه.. وحاول البحث عن أي مشروب روحي باق لديه.. دون جدوى.

تداعت على إثر ذلك مشاهد من طفولته.. لم يكن يستقر في مكان.. هاجس ما كان دوما يلحّ على والده ليتنقل من هنا إلى هنا.. العشر سنين الأولى من عمره لم يعرف معنى حميمية المكان.. ينقل والده مقر السكن.. يحمل كل لوازمه.. يتذكر كراتين الكتب المربوطة بقوة تحملها عربات نقل صغيرة أحيانًا وكبيرة أحيانًا

---

[1] محاكاة للطريقة التي كان دانتي وفرجيل يتحاوران بها في الكوميديا.

أخرى.. يتذكر انتقال والده من جامعة لأخرى وكأنه يخشى مطاردة شخص ما.. وكأنه يخاف من مواجهة معينة.. وكأن شيئًا ما يؤرقه ولا يريد مقابلته أو التعرف عليه..

يتذكر أيضًا رحلته إلى اليونان التي شكلت جزءا هاما من ثقافته.. سافر والده إليها لا يتذكر كبعثة أم كانتداب.. قضى هناك سنتين من طفولته.. كان ووالده يزوران المعابد القديمة العتيقة، عرف تفاصيل وحكايات كل حجر وضع بقصد فوق حجر يوناني.. التقط بعض الكلمات اليونانية، لكنه كان أصغر من أن يصيغ الجمل والعبارات التامة، كما كان عقله أصغر من أن يفرق بين العقيدة اليونانية الوثنية القديمة وعقيدته التي ينتسب إليها اسما (ربما).. تداخلت خطوط إمداد إيمانه فأخذ مواد اليونان الدينية الخام ليصنع منها منهجًا دينيًّا إسلاميًّا خاصًّا به.. وجد في بعض شطحات الصوفية معينا آخر، وتجربة لصهر الفوارق ومزج الخلافات والتباينات.

لم يكن واعيا بتخمر عقليته.. كان يمدها فقط بما يزكيها.. حتى أصبح الخلاف كبيرًا وأصبح خالد موزعًا بين قوتين روحيتين عظيمتين.

وسط خراب ذاكرته تقبع صور غير دقيقة، متهدمة، لمعابد اليونان العظيمة.. حين يفتح الانترنت ليشاهد معبد البارثينون على قمة جبل الأكروبوليس يجد مشابهًا له في عقله وثناياه، مثالًا قديما.. تركت الرحلة كثيرًا من الترسبات بداخله.. هذا الفوران اليوناني القديم، الفلسفي والديني، لسعه في عقله.. لم يسلم من هوسة البحث عن الله وسط قومة قش.. والبحث عن الإنسان الضائع بقاع محيط غاضب.. لم يجد أيا منهما.. أو ربما وجدهما مختلطين متداخلين بشكل مربك.

(٤)
مدحت

ذلك الخلاء الشاسع الذي في الداخل من ذا الذي يغامر بالدخول فيه..
يوجين يونسكو

كم من مرة وقف خالد بجانبنا وقفة محيرة.. وقفة من أجل الوقوف فقط لا من أجل الحصول على شيء في المقابل.. يعبّ لنا الدلو ثم يتوارى في الظل قبل حصوله على كلمة شكر أو ثناء واحدة.

في ضائقتي المالية لم أجد أحدًا يعطي بدون حساب سواه.. في أزمة رفعت الصحية ناضل وحارب من أجل إجبار الشركة على التكفل بمصاريفه ورعايته.. يعلم أن الحياة قاسية ويجب علينا تلطيف أجوائها قليلا.

فقده المتتالي جعله حساسًا إزاء كل فقد.. خسارته تستفزفيه معاني المروءة حين يجدها تحاصر من حوله.

ألمه نتاج تفاعل بطيئ بدأ منذ مولده.

لا أحد يستطيع فهم خالد بسهولة.. لكنه رغم كل عجائبه واضح جدًّا لمن يحاول وضع يده على مفاتيح شخصيته التي هي بالمناسبة نتاج حوادث مباشرة عاشها فتركت فيه ندوبا عميقة في ذاته.. لا يكاد هو نفسه يلحظها.. كوني خريج علم نفس أستطيع إلى حد ما فك شيفرة خالد.. بل إنني اعتبرته أحد الحالات التي

تستحق النظر والمراقبة فجعلته شغلي الأساسي في أوقات الفراغ.. إنه كصديق يستحق المساعدة، وكحالة تستحق الكشف.

أول ندبة كانت فقدان أمه، لم يرها قط وهذا إلى حد كبير سببٌ من أسباب حالته النفسية المعقدة.. الافتقار إلى حنان الأم أمر له أثر عميق جدًّا في تكوين شخصية المرء.. لكنها على أي حال لم تكن ظاهرة، وكان يتعايش معها دون أزمة.. أو ربما استطاع التأقلم مع صدع فقدان أمه كما يتعود قليل الحيلة العيش بداخل بيت ذي شقوق من أثر زلزال ما.. البيت قائم لكنه آيل للسقوط في أي وقت وتحت تأثير أي هزة جديدة.

تشكلت شخصية خالد فيما بعد حول والده "عصمت عبد المجيد" الأستاذ بكلية الآداب قسم الدراسات اليونانية واللاتينية.. لم يكن والده ملتزمًا دينيًّا لكنه في المقابل ملمٌّ بكل تفاصيل الأدب الإغريقي منذ هوميروس وهزيود.. عصمت علامة في هذا الفرع من المعرفة.. تشرب خالد حب والده إلى هذه الآداب على وجه الخصوص.. قرأ أساطير اليونان والرومان وتراجيدياتهم بل وحتى ملاهيهم.. استشبع بمرارة المآس وسخرية المهازل.. الانغماس التام في مطالعة هذه الكتب منذ طفولته جعله يعيش وسطها بتمامه.. راح يرى أشياء تتجسد له في أحلامه، بل وفي يقظته.. ربما هذا الأمر هو ما سبب له خلطًا بين تصور الإله من منظور يوناني وثني ومنظور إسلامي، حيث كان لا يفرق تمامًا بين "الله" و"زيوس".

لما سألته ذات مرة عن أكثر الشخصيات التاريخية قربا لقلبه قال دون تردد:

- هنريك شليمان.

لم أكن أحب مط الأسئلة معه.. الأسئلة الزائدة تولد معه إجابات مربكة تحيد بنا عن الغاية.. دونت الاسم في ورقة ولما رجعت منزلي ذهبت لأتعرف على هذا الشليمان.. صراحة إجابته ساعدتني كثيرًا على حل جزء من المعضلة.. فشليمان هذا هو من كشف عن مدينة طروادة الأسطورية وبث فيها الروح لتنضم رسميا إلى مواضيع التاريخ، إن هوميروس لم يكن بهذي لقد قدم الرجل صورة أدبية عن معركة تاريخية حقيقية، هذه الفرضية ظلت معلقة حتى جاء شليمان ليكشف النقاب عن مدينة كاملة مندثرة تحت الرمال.. الأكثر إثارة في الأمر أن شليمان كان مهووسا جدًّا بالتاريخ والأساطير اليونانية القديمة.. أطلق أسماء الأبطال والشخصيات الأسطورية على أبنائه وخدمه وكل معارفه.. أخيل، هكتور، أجاممنون.

حاولت ربط هذا الاكتشاف بحدث قديم قليلا فاستطعت التوصل إلى استنتاج مبدئي لحالته.. كنا نتحدث ذات يوم عن أكثر النساء إثارة من وجهات نظر كل شخص منا، فلما جاء الدور عليه وكما كل مرة فاجأنا بما لا نعيه حيث قال:

- Venus callipyge

ظننتها ممثلة أفلام بورنو لكن المفاجأة أنها تمثال لآلهة الجمال عند الإغريق، عاري الأرداف يمثل فينوس وهي تنظر إلى مؤخرتها في إثارة واشتهاء.. في الواقع التمثال مغرٍ جدا، لكن هل يصل إلى حد جعله أكثر الأشياء إثارةً إليه؟

هذه الحوادث وأكثر منها جعلتني أستنتج الحالة التي يعانيها خالد.. إنها "ميثومانيا" واضحة.. أو كما تسمى Pseudologia fantastica.. أو الكذب المرضي.. هذه الحالة ليست هوسًا بالأساطير كما قد يتبادر إلى الذهن.. إنها استعارة لروح الغموض والإثارة التي تخلقها الأسطورة..

أو هي محاولة لاختلاق أساطير وأكاذيب خاصة بأصحابها.. يقدمون رؤى غريبة، يصورون أمورًا خارقة، يلجئون لتأويلات خارج الصندوق.. لكن لماذا قد يفعل خالد هذا؟

الأمر هنا أن خالد يريد الهروب والاختباء وراء طبقة من الأكاذيب.. يريد التخفي.. لم يجد بناء متكاملًا في رأسه يتخفى فيه سوى الأساطير الإغريقية التي تعدّت عنده حد الأساطير لتصبح شبه عقيدة وإيمان تام.. إنها عالم كامل في رأسه.. ملمّ به جيدًا.. إنه الوحيدُ القادرُ على دخول متاهة ديدالوس والخروج منها دون الحاجة إلى خيط آريان.. لقد سيطرتْ آلهة الإغريق وحكاياتهم على عقل الطفل الغرير فاختلط الأمر عليه وحلت الأكاذيب محل الحقائق ولم يعد يستطيع التفرقة فيما بينهما.

في الواقع هو كما أنه يريد التخفّي، يحتاج أيضًا إلى جذب الانتباه.. إنها عملية مزدوجة، يخشى الظهور لكنّه يريد ترك أثر ما.. فيتخفى بشخصيته وراء شخصية هرمس مثلًا.. ثم يلقي بآرائه الغريبة عن العالم لتجذب الأنظار إليه، تجعله يبدو مختلفًا، متميزًا، استثنائيا.. بشكل آخر ربما هو يريد التخفي لحين التأكد من إثبات ذاته للناس.. يخشى المواجهة والمبادرة، فيستحضر قول الحلاج " ليس في الجبة إلا الله".. لكنه لا يريد أبدا الكشف عما تحت الجبة.. يريدنا أن نطلب نحن، أن نترجّاه كي يفعل.. منتهى الخلل.. إن خالدًا يتحلّل.

لما زرتُه بعد وفاة والده القريب –وهذا هو الحدث الأكبر الذي قلب حياته رأسا على عقب– كنت مصرًا جدًّا على استكشاف مكتبته أو بالأحرى مكتبة والده التي نهل منها كل معارفه وخبراته.

توقعاتي وجدتُها بالضبط كما اعتقدت.. نصف المكتبة أساطير ودراسات عن الأساطير اليونانية والإغريقية.. على كتاب بارز في منتصف المكتبة يطالعك بمجرد وقوع نظرك عليه، كتب بخط نسخ جميل: الإنجيل.. لما فتحته وجدته كتاب "اللا منتمي" لكولن ويلسون.. إن الأمور تتّقد، تكشف نفسها.. على أحد جانبي المكتبة، وجدتُ عدة روايات حديثة أتذكر منهما "ترنيمة سلام" مقطوعة إلى نصفين.. النصف الأول موجودٌ أما الآخر فلا وجود له –أخبرني فيما بعد أنه تخلص منه-.. في آخر صفحة من الجزء المقطوع مكتوبٌ بخط يد خالد نفسه "النهاية".. سجّلت رقم الصفحة المكتوب عندها "النهاية" والملاحظات التي رأيتها في ورقة صغيرة لعلها تنفعني في مهمتي، التي بدأت تصبح شيقة جدًّا بالنسبة إلي.

لم أنسَ بالطبع تصوير بعض صفحات من أجندة مذكراته اليومية.. المليئة بكنوز قد تساعد على فك شيفرة خالد.

أعتمد في بعض تحليلاتي على صديق لي اسمه "عادل مختار" له خبرة تفوقني في مجال التحليل النفسي.. كان يعرف كتاب اللا منتمي هذا.. وقرأ أيضًا ترنيمة سلام.. فساعدني جدًّا على فهم معطيات هذا اليوم.

شرح لي "عادل" أهمية كتاب اللا منتمي في بحث سمة الاغتراب النفسي في الأدب الغربي، وكيف تتبعها ويلسون منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى القرن العشرين.. ثمةَ مشكلةٌ على حد قوله بين الشخص اللا منتمي والعالم.. هناك اختلاف عميق وجذري بينهما.. ليسا على وفاق أبدا.. إن الشخص اللا منتمي هذا لا يستطيع التعايش مع محيطه ودائما هناك حلقة ناقصة تفصله وتجعله يعيش متوحدًا مع ذاته، لا يعرف طريقًا للالتحام مع الآخرين.. هو

متشائم جدًّا ولا يأمل في غد، لأن الخلل العميق في هذا العالم أكبر من أي حل ممكن.

هذه النظرة التشاؤمية هي التي جعلته يقطع رواية ترنيمة سلام عند النقطة التي وصل بطلها فيها لقمّة الأزمة.. تنتهي القصة بالنسبة لخالد عند هذا الحدّ.. ورغم أن الكاتب وضع انفراجة في القصة واستطاع أن يصل بالبطل إلى برّ الأمان حيث تصالحت نفسه مع الكون من حوله وأصبح ربّانيا بالمعنى الروحي النفسي وليس الديني.. إلا أن خالدًا لا يعتقد بكل هذا ويرى استحالة تحقيق الإنسان لهذا السلام النفسي.. لذا فقد كتب "النهاية" عند أكثر مراحل الرواية سوداوية.. النقطة التي حاول فيها البطل الانتحار والتوحد مع ذاته والانقطاع عن العالم.

إذن فخالد يعتبر نفسه (لا منتمي).. كما أنه لا يرى حلولًا لهذه الإشكالية الخاصة به.. ربما هذا الأمر سبب تقديمه لاستقالته بعد وفاة والده.. إنه لم يعد يجد دافعًا ولا مبررًا للاستمرار في خوض مباراة سخيفة لا تُقدم ولا تؤخر.. إنّه محكوم بالشقاء.. هذا قدَره.. بل إنها بالأحرى طبيعته.

اتفق "عادل" مع تشخيصي المبدئي للحالة على أنها "ميثومانيا" لكنه أضاف إليّ أمرًا هامًّا جدًّا.. أخبرني أن "الميثومانيا" هي بمثابة عرض وليست حالة في حد ذاتها.. إنها أحد أعراضُ الخَلَل.. هناك مشكلة أكبر في نفس خالد.. ربما هي "عقدة نقص" أو "اضطراب ثنائي القطب".. بالطبع هو مريض بالاضطراب ثنائي القطب دون شك.. كلنا مصابون به.. فرحة مفرطة وحزن مبالغ فيه.. من منا لا يفعل هذا؟ من منا لا يستيقظ والابتسامة ملء شدقيه، لتتحول بعد دقائق إلى قرف مزمن لا يبرحه.. يعتمد "عادل" في هذا الاستنتاج على حدسه.. لكنه رغم ذلك متأكد جدًّا أيضا.. الخلل أعمق.. والميثومانيا مراوغة، محاولة لإخفاء

المشكلة الأكبر التي تنهش في عقل خالد اللا واعي.. هو في خطر حقيقي.. خطر داهم.. ولا بدّ من إنقاذه.

أرسلت لـ"عادل" صفحات من يوميات "خالد" على البلوتوث، ثم تركته ومشيت.. لعلها تكشف شيئا نتتبّعه.

أما عصمت والذي مثل الأمل الوحيد الممكن لخالد للتشبث بالحياة، فكان موته صدمةً شديدة.. انقلبت أحواله بعدها.. انقطع عن العمل.. مرت الأيام الثلاثة ولم يمر خالد معها.. بقي وراء الزمن.. تجمد عن لحظة كان ينادي على والده فلا يرد عليه.. يحركه فلا يلتفت، التوسل إليه؛ فلا يستمع.. "هل يمكن هكذا أن تكون الأمور قد انتهت؟ لماذا لا ينتهي العمر حين نطلب نحن؟ فليغترف كل منا كما يشاء.. وحين يمل يقطع خيط عمره في الوقت الذي يناسبه.. لماذا يغتصبنا الموت بفجاجة؟ لماذا لا يخيرنا؟ لماذا لا ينتظر إتمام المشاريع وإنهاء المهام؟".. إن الموت لا يأتي على مزاج أحد.. بل على مزاجه هو فقط.

(٥)
كتابات خالد المتفرقة والمهملة "يومياته".

كلماتُنا هي الطريقةُ الأصدق التي نخدم بها العالم..

جانيت لوبلانك.

ماذا يفعل المرء حين لا يجد شيئًا يفعله؟ يكتب مذكراته أو يومياته في الغالب.. لا أكتبها بشكلٍ تفصيلي احترافي كما يفعل البعضُ فيسهب في سرد التفاصيل والحوادث.. أكتب انطباعات عامة عن يومي، عن حالة أحسها بقوة.. عن شعور مفاجئ ينتابني ويلحّ بشدة كي أعبر عنه بشكل أو بآخر.. لا تكفي روايتي المزمع كتابتها في تهدئة كل خلجات نفسي.. ثمةَ طوفان لا بد أن نشقّ له أكثر من طريق ونسربه في أكثر من مسار كي يهدأ.. ليس بالضروري الالتزام بكل الأيام.. أنا كسولٌ جدا.. ربما أكتب يوما وربما أتركها فارغة لعشر.. بعض الأيام تخونني الكلمات فأسب بشدة أو أعترض بشكل عضوي أحاول التعبير عنه في اليوميات.. تراودني فكرة حرق كل مفكرة نهاية كل عام.. أضعُها وسط لهبٍ مشتعل وأتبوّل عليها عن قرب، لتحرقني النار في عضوي.. غريبة هي التصورات التي تفرض نفسها على تفكيري بشكل مزعج.. ذات يوم ستنبثق فكرةٌ من رأسي لتكون كائنًا غريبًا مغفلًا مثلما حدث مع زيوس وأنجب أثينا من رأسه.. أثينا أصبحت ربة الحكمة وكائني سيصبح رب الحماقة والهوس والجنون.. أول ما سيفعله كائني هذا هو صعود الأولمب وضرب زيوس على رأسه -ربما على قفاه- معترضًا على خلق أثينا.

لا أستطيع تحديد طريقة كتابة اليوميات من طريقة كتابة السيرة الذاتية الشخصية.. سأدعُ الحدود كما وضعها النقاد وأكتب على كل حال.. فلأعتبرها

مزبلتي الخاصة.. إنه نوع جديد من الكتابة الأدبية.. ها أنا أبتدعه حالا، أؤسّس له.. هيا ها أنا أدعوكم إلى تلك المزبلة.. أدعو من؟ أنا وحيد جدًّا.. لا أعرف أحدًا يمكن دعوته لفعل شيء معين داخل مزبلة.. ما الحكمة في قضاء وقت مقرفٍ داخل مزبلة كهذه، حتى لو نعتناها بأنها مزبلة أدبية.. هل ما أكتبه هذا أدب؟ هذا تغوُّط.. ولا يستطيع أحد دعوة شخص ما أثناء تغوّطه لمجالسته.. إنه أمرٌ شخصيٌّ جدا.. سأدعو نفسي إذن.. سأتبرّز هنا كل أفكاري وأتبول وقتما أشاء من بين أصابع يدي.

نعم إن الكتابة هي أكثر أنواع التبرّز تأنقا.. إنها نتاج احتراق أفكارك وذاتك وجسدك.. لو لم تخرج كل هذه الفضلات لتسممت ونفقت في الحال.

٢٠١٥/٦/٦

الحر والعرق والتهاب فقرات الرقبة جو وجودي جدًّا ومثالي جدًّا لارتكاب جرائم غاية في الشناعة، إنها عقدةُ بطل رواية الغريب لكامو "ميرسولت".. في هذا الوقت يمكنني التمادي في جبروتي إلى أقصى غاية ممكنة: قتل بعوضة أو كتابة رواية.. لا أستطيع قتل بعوضة، فلأكتب رواية يقتل بطلها بعوضة إذن.

٢٠١٥/٩/٨

سنأكل ونشرب ونضحك ونعمل.. ما بأيدينا حيلة.. مقهورين نحيا، مرغمين نعيش.. تواصل الحياة مسلسلها وتندفع عابثة، غير عابئة.. تسقط سقطة جديدة، تتسافل، تتحاقر، تتماجن، تزداد قسوة وكراهية وقبحًا.. نحاول رغم كل شيء الاستمرار في الدور السخيف.. نخشى على حياتنا وهي لا تساوي شيئًا، نتشبث بالمستقبل وهو غير مضمون.. ألف ألف شيء يتربص بك، ألف ألف شرك، ألف ألف بلاء، ألف ألف مرض، ألف ألف نهاية لكل حلمك الذي تبلورت حياتك حوله.. في النهاية يبقى مصير كل شيء معلقًا ونبقى نحن أيضًا معلقين.. لعل وعسى ترفق بنا الحياة ولو مرة!

٢٠١٦/٦/٣

يا صديقي، إن استراتيجية "ابحث عن مكان مصلحتك واربض فيه كالكلب" استراتيجية قديمة جدًّا وخسيسة بالمناسبة.. الموضة أن تبحث عن مصلحتك في ثوب الإيثار وكأنك بالصدفة وقعت عليها بينما كنت تساعد أحدهم.. لا تكن فجًّا هكذا، ولا ممجوجًا.. وتأنّ.

٢٠١٣/٤/٣

إنه نشيط بحق يكتب البوست، يسجل إعجابه بعبقريته بعمل لايك له، لم يعط البوست حقَّه بعد، يكتب كومنت يشيد فيه بكلامه.. لا يزال هناك أمر صغير، فليشاركه إذن مع جميع أصحابه.. يكرر الأمر مع البوست الجديد المعدل بعد "الشير".. ينتظر خمس دقائق لعل أحدًا يسجل إعجابه أيضًا.. تمر نصف ساعة.. يضع خلفية للبوست لربما يظهر أكثر.. لا جديد.. يستجدي إعجابًا ولو واحدًا فقط.. دون فائدة.. يقرر فض صداقاته مع أصحابه على الفيس.. يفاجأ بأن قائمة أصدقائه خالية، وأنه لم يشترك فيه إلا من ساعة واحدة فقط.. يكتئب.. يقرّر غلق الحساب.. يغلقه.

من هذا المغفل، المعتوه؟

إنه أنا.

٢٠١٣/٥/٥

تتقاذفني الظنون.. تدور الدوائر وتحاصرني المثلثات، المربعات تنغلق علي، المستطيلات تحبسني في ساحاتها، الخماسيات والسداسيات سجون محكمة الغلق، أصبح كائنًا ثنائي الأبعاد من غيرك، لا عمق ولا معنى، أنا افتراضي جدًّا، تافه جدًّا من دونك.. أنا جرة قلم رصاص. أنا ورقة في مهبّ الريح.. ريح عاتية تحمل الورقة إلى سطح مستنقع.. تنزوي الورقة، يذوب الحبر رويدًا رويدًا.. تضيع ملامح المعنى الذي حملته الورقة.. يختلط الحبر بقاذورات المستنقع..

ببطء شديد يترسب الحبر على القاع الطيني.. لا أدري الحالة الجديدة التي أصبحتها.. حالة معلقة بين الوجود والعدم.

يا أبي!

بدون تاريخ.

ما الشبه بين الإحباط والأخطبوط؟.. قد يظن البعض ألا وجه للشبه ممكنًا، غير أني لاحظت في كليهما القدرة على تطويقك وابتلاعك إذا ما ملتَ إلى الاستسلام.. أو ظهرت منك بادرة تدل عليه.

بتاريخ مغلوط.

لا زال ينقصك شيء هام يا صديقي.. الأصالة.. لا زلتَ تدور حول الجميع، حسنًا هذا ليس شيئًا سيئًا على الإطلاق.. لكن السؤال إلى متى تفعل؟.. متى تصنع لك فلكك الخاص، ومدارك الذي بدوره يجذب أقمارا صغيرة تتهادى في كون شاسع.. لا ينقصك إلا نفسك يا صديق، ففتّش عنها.. ربما تحتاج رحلة البحث إلى ألف سنة ضوئية.. لا يهم.. فلتبدأ على أي حال.

لكني بالتأكيد لن أكون معك.

٢٠١٤/٦/٣ عيد ميلاده.

عندي دليل بسيط على أن داروين مخطئ تمامًا.. أنا.. لا يمكن أن أكون نتاج تطور ملايين السنين.. تلك انتكاسة الطبيعة.. أحيانًا تتراجع الأشياء إلى الوراء.. لا لا.. إنها تتراجع دائما.. نحن في طريقنا إلى الأشجار مرة أخرى.. الأشجار هي جنة الخلد الموعودة في جميع الكتب السماوية.

إنني أتحلّل.. هل سأتحوّل يوم القيامة إلى حفنة تراب؟ عفوا، هل ثمة قيامة؟ سأحاول البحث عن الأمر.. وحل المشكلة إن وجدت.

رهان باسكال يحل لنا المعضلة بعبقرية.. إن كان ثمة إله فها نحن سندخل الجنة لأننا آمنا به.. وإن لم يكن، فماذا خسرت يا أخي؟.. إننا لا نفقد أشياء كثيرة إذا اعتقدنا بوجود إله.. لكن تخيل نفسك لا تؤمن وذهبت لتفاجأ به جالسًا على عرشه يمسك بصولجانه.. ماذا لو أن زيوس حقيقة؟.. ها؟ أتدري كيف يمكن أن يصير الصولجان وأي منطقة من جسدك سيخترق؟ مصيبة يا صديقي.. مصيبة.

مفتتح اليوميات:

أندم على الصواب الذي لم أفعله كما أندم على الخطأ الذي لم أرتكبه.. أحيانًا أشعر أني أنا جماع كل ما أكره.. أنا غلطة الحياة الكبرى.. أو غلطة حياتي الكبرى.. لكانت الحياة أفضل لو أنني لم آت.

لقد كان عبد الحميد الديب عظيمًا جدًّا حينما لخّص كل شيء في بيت شعر واحد حين قال:

كأنني حائط كتب عليه.. ها هنا أيها المحصور طرطر!

تعليق على حدث:

هذا الرأس الخرتيتي يمكنه أن يعيش مائة عام إضافية.. إنه فارغ تمام.

خاطرة بعد التعليق:

أعلم أن الحياة باتت صعبة.. وأن الموج عالٍ جدًّا.. وأن الطموح يعاني من كثرة السدود والقيود.. آلات توليد الأمل بداخلنا تعطلت، لم يعد في الإمكان غير ما كان.. لا الزمان يسع ولا المكان يصلح.. الأمور متداخلة والأحابيل كونت عقدا عملاقة في طريق حياتنا.. حتى المطر ينذر بسيول، حتى الريح يبشر بالأعاصير.. البحر صديقي القديم بموجه انقلب علي، ومن كنت آمنه طوال عمري، غدر.. الشمس تحاول إذابة المشهد، لكنه كثيف في قسوته، في مأساته.. الشر لا بدّ في النهاية منتصر لأنه منظّم في سعيه لقلب هذا العالم.. محاولات الخير فردية غير منظمة، مشتّتة.. بقدر ما تضيف بقدر ما تنمحي آثارها.. أهرمان يخضع كل شيء لخطته.. أهورمازدا العظيم الشفيق، كان حسن النية بأكثر مما ينبغي.

هذه هي الجولة الأخيرة.. لا أشواط ولا معارك.. انتهت الحرب.. ومال الميزان.. وأصبحت المعايير مقلوبة.. أمثالي سيبادون إبادة.. تقديم جرعة ماء لمسكين ستصبح جريمة، التلطف مع الجار سيصبح ذنبًا عظيمًا.. سيتصافح الناس بأسنة سيوفهم، وسيقتربون من بعضهم بحذر وكل منهم يضع يده على مقبض مُدْيَتِه.. سيسحل من يتصدق من ماله، ويعدم من ينصف مظلوما.. وسيفتضخ أمر من يؤوي عابر سبيل.. فهلا انتهى كل شيء الآن وبسرعة؟

هذه خلاصة ما خطه هرمس العظيم، تعلمتها منه مباشرة.

قصة قصيرة بتاريخ:

نظر له بعين متّقدة وبحماس مغلول وقال: يا صديقي؛ دعنا نتفق قبل كل شيء على أن هناك فرقًا بين الثقافة والسخف.. ثمةَ خيطٌ دقيقٌ يفصل بينهما.. فلنتجهّز لهذه النقطة أوّلا ثم ننتقل لنحلّل أفكارك، نضع السخيف في سلة المهملات.. ونتخير الثقافي منها لنغوص فيه أكثر.. لا وقت عندي للتفكر في سخافات كل البشر.. ها يا صديقي إننا على الدرب سائرون.. لقد تخلّصنا من معظم أفكارك التي تحملها في رأسك.. كيف يا صديق تغلق هذه الجُمجُمة على كل هذا الزَّبَدِ من السخافات؟ إنك خارق بحقّ.. دعنا نكمل المهمّة.. ها؟.. يا لك من صديق مُطيع.. أترى لم يعد هناك ما يستحق النقاش.. رأس فقط كان محموما.. خرطوم مياه تضعه من أذنك يدخل إلى تلافيف مخك لتتخلص من القذارات التي تعلق به.. انظر إلى سلة المهملات.. لقد حوى مخُّك منذ قليل كل هذا الكم من القرف.. حمدًا لله على سلامتك يا صديق.. طهور إن شاء الله.

آخر صفحة في اليوميات:

كنت أسرعَ الحَمْقى.. وأبطأ الحكماء.. فيا لحظي التعِس!

تاريخ غير واضح:

-لو عاد بك الزمن؟
-لتمنيت أن أكون شخصا آخر.. أي شخص آخر..

لا أحد مثلا!

بدون تاريخ:

حلمت بنص إيروتيكي.. لا أفكر في كتابته.. تحثّني نفسي على التجريب! أعلم أنه ليس وقته تماما.. لكن ماذا أفعل.. لا نختار ما تسقطه علينا دوحة السماء!

أنا متردد جدًّا حول كتابته.. إذن فسأكتبه.. لا تدع الأمور التي تتردّد بشأنها، هي في الغالب ما تريده بشدة.. إنها الأمور الحقيقية تمامًا.. التردّد هو فخ إرادة عليا تحاول إلهاءَك عن الأمور الجادة لتقع في أحابيل الأمور المؤكدة –التافهة في الغالب- والتي تلحُّ عليك دون أدنى شك من ناحيتك في طبيعتها.. تلك بالذات هي ما لا تحتاجه على الإطلاق.. لذلك فقد نقشت مبدأ عاما في حياتي: الأمور التي أتردّد بشأنها سأتتبعها بكل طاقتي.. والتي أنا متأكد منها، سأهملها وأتركها وأفر.

أما عن النص الإيروتيكي الذي ترددت بشأنه فها أنا أكتبه موجزا لحين النفخ فيه، ليصبح نصا مكتملا:

جاءتْني تعرض نفسها.. عارية تمامًا.. لا أعلم كيف أتت هكذا عبر الطرقات المزدحمة.. وكيف استطاعت مقاومة نظرات الناس وتعليقاتهم السخيفة.. إنها مثيرة –على الأقل بالنسبة لهم– فكيف نجت؟

أزاحت يديْها اللتين كانتا تغطّي بهما صدرها.. تفاجأَتْ بحفرتين عميقتين يخترقان جسدها فتظهران ما وراءها.. استلقت على أريكة وراحت تتلوّى من الشهوة في حين أنظر لها متعجبا، غير مترجم المعنى من وراء هذا التلوّي.. استدعتني فحاولت التقدم.. فتحت قدميها فخرجت ألسنة نار في وجهي.. اختلط المشهد وارتبكت.. ثم انهارت البناية بنا جميعا.. (انتهى).

تعقيب: هل هذه أقصى إيروتيكيتي؟ حسنا.. حسنا.. يبدو أنها قصة سخيفة.. لكن فلتصبر على جار السوء.

٢٠١٦/٨/٣

لم تستطع كل الفنون منذ نشأتْ محو تلك الآثار الآثمة التي لطخت بها أيدي الإنسانية وجه جايا الجميل..

فلماذا إذن أكتب روايتي تلك؟ بالطبع أنا لا أكتبها للبشرية كي تخرج من نفقها المظلم.. أنا أكتبها لنفسي لعلها تمدّني بحاسة تجعلني أرى عبر الظلام والعمى..

بدأت كتابتها وأبي حي يرزق.. أطلعته على أجزائها الأولى جدا.. أعجبته أشياء وانتقد أشياء.. أخبرته بأنها روايتي الوحيدة، التي لن أنشرها أبدًا، ولا يهمني كثيرًا كيف تخرج مثالية جدًّا لا شية فيها.. قلت له: أنا لست أسخيلوس ولا سوفوكليس.. أنا فقط هيرميبوس.

- ومن هيرميبوس هذا؟
- شاعر.
- وماذا كتب؟
- لا شيء يا أبي.. إنه شاعرٌ مغمورٌ جدًّا، كتب قصائد لم يقرأها أحد غيره.. وأحرقها كلها قبل وفاته..

تعجب كيف لي بمعرفته.. فأعلمته أني قابلته بطريقة ما عبر اللا شيء بينما كان يتعبّد في معبد دلفي.. تعارفنا عبر وسط لا مادي.. وقرأ علي بعض أشعاره.. ولم أره منذ ذلك الوقت.. لا أحد من النقاد أو المؤرخين يعرف عنه شيئا.. حتى ولا أنت يا أبي.

- وماذا قرأ عليك من أشعاره؟
- لا أتذكر غير قصيدة واحدة له يقول فيها:

بينما كل شيء يمر
تطلع الشمس
ويطل القمر
ويسير النهر
في تغير هيراقليطي

أبقى أنا وحيدا متماسكا
لا ألوي على شيء!

أنشدنيه يا أبي بلغة يونانية قديمة، لا أعرفها.. لكنني فهمته واخترقتني كلماته.. كان شكله وموسيقى أبياته ومعناها يزلزل كياني حتى أني استيقظت مفزوعًا هلعًا.. لا الاستيقاظ الطبيعي الذي هو الصحو.. أنا لم أكن نائمًا.. هل ما حدث حُلم؟ لا أعرف.. لكن بمجرد انتباهي رحت أكتب الأبيات، أترجمها، أو أترجم المعنى الذي شعرته، أو الفكرة التي ظننت أنه يعبر عنها.. لم تكن ترجمة بالمعنى الحرفي، لا أدري أكنت أكتب ما قاله، أم أكتب ما شعرت به.. أم هو كان يلقي علي من وحيه ما أشعر أنا به.. إن الأمر مُرْبِكٌ يا أبي بحق.. هل كنت أترجم ذاتي؟.. وكيف لي أصلا بالتأليف بلغة لا أعرفها.. أين هيرميبوس، إني أحتاجه جدا.

تاريخ:

يضغطون ويعصرون ويسحقون.. ثم ببلاهة يتعجبون كيف قطعت الأنفاس!

هل سمعت شيئًا عن الفتاة التي أخبرها الطبيب أنها ستموت بعد ستة أشهر؟.. إنها لم تستطع البقاء.. فأنهت حياتها في الشهر الثالث.. كانوا أحقر من أن تعايشهم القلة القليلة من حياتها الباقية.. الإنسان هو مشكلة الإنسان الكبرى.. خازوقه.

(٦)
ميساء

إن الحربَ الطويلة تدمّر حتى المنتصرين فيها.

باولو كويلو

كان تعرفي على خالدٍ حدثًا عظيمًا فيما أحسب، رغم مآله.. كان استثنائيًّا تشوبه مسحة عميقة من الجنون وهذا بالضبط ما أحب في الرجل.. لأكون أكثر دقة، هذا بالضبط ما اكتشفت أني يمكن أن أحبه في الرجل.. لا معقوليته تثيرني كأنثى.. وحدته، تجديفه، شطحاته أمور لأول مرة أراها مجسّدة أمامي خارج الكتب.. ذكّرني بالحلاج والبسطامي وكامو وسارتر.. جريئون بشكل كافٍ للتعبير عن آرائهم في أي وقت ودون مواراة.. رجلٌ يدّعي وجود صداقة خاصة مع الله.. لا أدري مع أي إله بالضبط، لكنه يتركنا فجأة، يختفي لمدة ساعتين، وحين يرجع يتأسف معلنًا أنه كان هناك، مشيرا إلى أعلى.. يضحك الجميع، فأسأله وماذا فعلت؟ ينظر لي مقدرًا تصديقي له.. ثم يأخذني من يدي ليخبرني عن التفاصيل.

لا شيء ملفِت في خالد من ناحية المظهر.. ولو وجد ما يلفت فليس بالطبع مما يغري البنات تجاه شاب.. يملك كرشًا صغيرا يشوّه معالم جسده.. يحلق ذقنه وكأنه لا يتركها تنمو ساعة، ثم يتركها لتشك أنه قد حلقها يوما ما.. يصرف من ماله حتى تعتقد أنه مليونيرا، ثم يطلب منك أن تطلب له سندويتشا على حسابك لأنه مفلس تمامًا.. هو لا يعرف قيمة تدعى "الوسط" أو "التوسط".. متطرف في كل أحواله.. أعتقد أنه سفينة ضاعت بوصلتها وتحاول التأقلم على العيش وسط بحر لجيّ لا هادي لها.. كنت أسأله: بماذا تشعر يا خالد حين تخلو

إلى نفسك؟ فيجيبني: أشعر وكأني رجل ركب مركبة فضائية ولسبب ما سقط منها على بعد ألف سنة ضوئية من الأرض، هل تعلمين بماذا يشعر هذا الرجل؟

- بماذا؟
- إحساس عميق بالسقوط المستمر، سيفزع قليلا، يرتبك، يحاول السيطرة على مجريات الأمر، يختنق، يتألم بشدة ثم.
- ثم ماذا؟
- ثم يبدأ في إيجاد المعنى في السقوط، وأنه لا زال يملك خيار العيش. سيظل يسقط إلى ربما نهاية حياته.. لذا سيحاول أن يجعل الأمر أكثر تنظيما.. سيعتدل بطريقة ما.. يحاول تأمل أجزاء الكون المتناثرة حوله.. يلوك قطعة لادن وضعها مصادفة بفمه قبل سقوطه، باستمتاع.. حتى ينتهي الموضوع كله بأسرع الطرق التي يرتضيها. - يرتضيها من؟
- الله مثلا؟
- لا أظن.. لو أراد الله قتلي، لقتلني هناك على الأرض.. ما كان لينتظر رحلة طويلة شاقة كهذه.. ما كان ليستدرجني لمجاهل الفضاء كي يفعل تلك الفعلة.
- هل قرأت "أسطورة سيزيف" لكامو؟

يندهش من سؤالي فيرد:

- وهل تعرفين سيزيف؟ كما تمثله الأسطورة وكما فسر كامو في كتابه حاله؟

- طبعا.. إن ما تقوله هو بالضبط ما حاول كامو توضيحه في الكتاب.. إننا نسقط، ولا حل ممكن لإيقاف هذا السقوط، إذن فلنستمتع.. نستمتع بلا معنى حياتنا، لا معقوليتها.

كانت هذه الليلة قمة علاقتنا التي حذرني منها كثيرون.. يقولون كلامًا على شاكلة: إنه مريض نفسي، إنه مجنون.. فاظفر بذات الدين.. إنه سيتعبك جدا.. إنه تعيس وسيتعسك معه.

رغم أني كنت أجد معنى فيما يقولون لكن سيطرته غير الواعية عليّ جعلتني ألقي بكل هذا الكلام عرض الحائط.. إنه استثنائي في عالم مملّ.

غريب في عالم متشابه.. يحلّق في الفضاء في حين يرزح الآخرون تحت وطأة المعيشة والروتين والمسئوليات التي تهد الحياة.. لا أحد له غير والده –لم يكن والده بعد قد توفى– وهو رجل أحسبه سيقدر علاقتي بابنه.. لم أكن أتحدث عن الزواج.. بل عن العلاقة.. العلاقة الحرة.. التي تبدأ بالتعلّق والشغف ثم تنتهي بما يرتضيه كلا الطرفين.. الزواج في الغالب أقوى اختيار.. لكنه يأتي بعد تبصر.. أو لا يأتي، بعد تبصّر أيضًا.. هل أنا مارقة؟ فلأكن إذن.. الخيارات أمامي قليلة وأجدني مشدودة لأكثرها وعورة..

في هذه الليلة اقتربنا إلى حد تلاشي المسافات الفاصلة.. كنت البادئة، مقدامة.. في حين كان مترددًا، متقهقرًا.. استجاب بقدر بسيط.. فصعدت عملية الاحتواء.. لمسته بحب وبشَبَق شديدين.. ولمسني برغبة متهافتة متهالكة.. لكنه حاول.. لثمتُه، طوّقتُه، أعجبتني جدًّا فكرة سيطرتي عليه.. أو فلنقل مبادرتي القوية المباغتة لكل حواسه.. انساب في يدي كقطعة العجين.. حاولت تشكيله، انسبتُ معه لنكون مزيجًا واحدًا.. نصنع منه تمثالا عظيمًا، تترتّب جزيئاته مني ومنه

وَفْقَ نظام هندسي بحت.. مال برأسه فملت معه بفمي، دفعني دفعة واهنة.. فجذبته جذبة قوية.. جلس فصعدت.. مددت يدي إليه، أداعبه عند نقطة التقاء خليجيه.. ففزع.. نحّاني بقسوة.. ثم تركني ورحل..

لم يدرك رغم حساسيته أن استسلام فتاة وجودية جنسيًّا مسألة مبدأ.. خصوصًا حين تكون قارئة مثابرة لأعمال كيركجار بلغتها الأصلية.. هو كان أسير الأسطورة الإغريقية وأنا أسيرة الفلسفة الوجودية.. قراءاتي قليلة لكنها تركّز على الأدب والفكر الوجوديين بصفة خاصة، واللذين بدورهما أطلعاني على معنى اللا معنى.

أرسلت إليه مساء معاتبة وساخرة:

- من يستطيع أن ينام مع امرأة ولا يفعل ذلك، فإنه يرتكب إثمًا عظيمًا.. يا ولدي إذا دعتك امرأة إلى فراشها ولم تلبّ دعوتها، تحطمت روحك! وستشهد تلك المرأة يوم القيامة أمام الله، ومهما كنت تقيًّا، ومهما كانت أعمالك، فإن الله سيلقي بك في نارجهنم.

ضحك ثم أرسل لي:

- هذا كلام زوربا المعتوه.
- لماذا تتساذج عند تلك النقطة بالذات؟
- أنا ساذج في كل شيء.
- لماذا إذن؟
- لأن السذاجة أداة عظيمة لتفكيك الواقع.
- فكّك الواقع وقل الكلمة التي أنتظرها منك.. قل: "أحبك"!

- لا أستطيع.
- لم؟
- لأنها قيد لكلينا.
- قيدني إذن.. قيدني بطرفي الوثاق وسأتركك محلولًا.. قيدني بك وكن حرًّا كما تشاء.. لن أكون عبئًا على حريتك.. واختر شكل علاقة الحب التي تريد.

لم يرد.. عقّبت:

- أريد رؤيتك الآن!
- أين؟
- في بيتك.

هرولت مسرعة إليه.. دخلت بيته للمرة الأولى والأخيرة.. تحللتُ من كل شيء.. دعوته.. رغبته.. راوضته.. فلم يرتضْ ولم يرتدْ.. احتضنني وبكى.. فقط بكى.. ألبسني ثم سرّحني بلطف موجع.. مشيتُ وأسناني تكاد تتكسر من الغيظ، بينما دموعه التي انهالت على صدري ترقّق قلبي عليه.. شعرت أنها النهاية.. هكذا قال بدون كلمة واحدة.. لكني لم أستسلم.. ربما حاولت مزج الماء بالزيت.. فلأقرب الطبائع قليلا.. ولم أنجح.

بعد هذه الليلة بدأ منحنى علاقتنا في الانحدار.. محاولة لتجديد الأمر، ثم هروب، يتبعه اعتذار.. وهكذا لأكثر من مرة.. آخر مرة كانت مختلفة تماما، كدنا نفعلها، كان مشحونًا من جراء فقدان والده، يكاد ينزّ شهوة.. وكنت أتوق إليه

بشدة.. دفعني بقوة جنونية.. اصطدمت في الحائط، نهرني بشدة وسبّني.. ثم ذهب مغاضبًا.

لم أستطع تفسير سلوكه هذا.. الأمر يبدو معقّدًا.. مشكلةٌ نفسيةٌ بداخله من المرأة بشكل عام.. يخشى شيئًا، يخاف الاختبار.

في نفس الليلة غير صورة بروفايله بصورة مرسومة لإله يوناني اسمه هيفايستوس.. لم أفهم المغزى من هذا التغيير.. وبالمناسبة هو لا يفعل شيئًا من دون مغزى وراءه.. أو هو يحاول دوما إشعارَنا بذلك.. كل أفعاله تحمل فكرةً ما.. لم أحاول تتبع أثره.. تجاهلته متمنّية أن يرجع مرة أخرى يعتذر فأسامحه، لكنه لم يفعل.. وربما أنا لن أفعل لو فعل.. أم تراني فاعلة؟

بعد يومين بالضبط بدأ يخبر المقرّبين له أننا انفصلنا لأن أحدهم تقدم لي ووافقت عليه.. قام بحذفي من قائمة أصدقائه.. بل –في الواقع- حذف الجميع فيما عدا مدحت ورأفت وثمانية آخرين.. لم أحاول الاستفهام.. تركتُ كل شيء يجري كما يريد.. لكن أغرب ما حدث هو أمر تقديمه لاستقالته على هامش مشكلة ما.. لا ندري حقًّا أقدم استقالته أم تم طرده من الشغل كما أشاع.

عزمت على منع نفسي من الاتصال به.. كرامتي تأبى.. لكن فضولي يغلبني فأحاول، لأتراجع في اللحظة الأخيرة.. لماذا فعل كل هذا معي؟.. ولماذا اتّهمني زورًا وكذبا؟.. أعلم أن الأمر لم يتطور لحبٍّ بالمعنى الشامل للكلمة بيننا.. وأن اختلافه نهرني لا أكثر، وفضولي ساقني، في الغالب.. وأن النهاية تلك ليست مؤلمة جدًّا، بل هي ليست مؤلمة على الإطلاق.

لا يظنّني أحد قاسيةً.. نعم لم يكن حبًّا.. لكني كنت على وشك الوقوع في حبه.. هو فقط لم يساعدني.. لم يعطني الفرصة الكافية لذلك.. همومه التي تسَع السماوات والأرض تحول بينه وبين ذاته، وبين الأشخاص من حوله.. أستطيع عشق خالدٍ بجنون فقط لو مدّ لي العون القليل.. لكن مشكلة خالد مشكلة أكبر مني ومن ذاته.. هي مشكلة الأشخاص اللا منتمين.. أنا أحيانًا أشعر بهذا اللا انتماء، لكني لا أستسلم له.. أحاول تبخير منابع هذا الإحساس بالانخراط أكثر في الحياة.. هو انفصل تمامًا.. لم يعد موجودا.. أو هو وجود إكلينيكي.. جسده هنا.. لكن روحه تحلق في مكان آخر.. تشاهد الخلل العظيم الذي أصاب الوجود صبيحة يوم ما، فجعل اللا منتمين نتوءًا وورَمًا، يستأصل نفسه بنفسه.

عمومًا، وضعت حاجزًا بيننا.. وقررت نسيانه.. لكن الطامة التي وقعت كانت أكبر من أي حسابات ومشاكل بيننا.. وسامحته مع أول لحظات وصول الخبر لي.

(٧)
بارقة

ليس هنالك من طريق إلى الخارج، أو إلى ما حول، أو إلى الداخل.

هـ. ج. ويلز

لم يجد خالد ما يروي به عطشه الكحولي.. يزيده ذلك تهيجًا وغضبًا.. يحاول شغل نفسه بأي شيء آخر.. الساعة لا تزال الثانية ظهرا.. الوحدة والفراغ يمدان في اليوم إلى غير ما حد.. حين لا تحتاج الوقت يتثاقل، وحين تحتاج أضعافه يهرُب منك كما الضب المطارد.. يتذكر عقدة هيفايستوس.. هذا الإله المأزوم ولد فينوس.. إنه كما يقولون سبع صنائع والبخت ضائع.. هو مسئول عن أشياء كثيرة جدا، إنه شعلة نشاط، يبدع فيما يفعل، يتقن مهنته بشكل ملفت للنظر، لكن -رغم ذلك- نقصًا فاضحًا يؤرّقه دوما.. إنه أعرج.. تخيل: إله أعرج!.. يا للفضيحة.. لذلك فقد اعتزل هيفايستوس العالم وراح في مكمنه يصنع الأسلحة العظيمة لأبطال اليونان الكبار.. يصبحون هم أبطالًا تتحدث عنهم الملاحم الكبرى ويبقى هو أسير عرجه.. إن قدمه تسير عكس طموحه.. عكس الاتجاه.. سرعته تتحجر عند نقطة ما في قدمه، فتعطل سعيه.. تمامًا مثله.. مثل خالد.. إنه هيفايستوس لو أراد تسمية أخرى غير خالد.. لذلك فهو يهوى وضع صوره على الفيس بوك.. يحتار الناس حول تفسير ما عساه تعني صورة هيفايستوس.. لكنه يعلم.. يعلم جيدا نقاط التشابه الدقيقة بينه وبين هذا الإله البائس المسكين!

منذ الطفولة وخالد يتعجب من تجارب النقص التي قضي عليه بها.. على الدوام هناك شيء ما ناقص.. كل شيء تام إلا "حتة".. يتذكر بيت الشعر الذي كتبه "علي سلامة":

وكل ما أوزن ألقى ناقص حتة..

أجيب قميص تضيع جاكتة..

هذا هو خالد تماما.. أب ولا أم.. شاب ولا حب.. أو حب ولا أمل في اكتماله.. رغبة ولا انقضاء لها.. عقل جبار ولا طاقة نفسية.. طموح يقابله انهزام.. أب وموت.. وحدة ولا أهل.. أي شيء وفي المقابل لا شيء.. معادلة غريبة.. ألا يجب أن تكون كفتا أي معادلة متوازنة.. فما بال معادلته لا وزن لها.

حين ولد، أخبره والده -فيما بعد- أنه كان يعاني مشكلة خطيرة جدا.. مشكلة خاصة بالقلب أو الرئة ربما.. تقريبا لأنه ولد ابن سبعة أشهر.. أيضًا كان لا يدرك وجه الاستثناء في أمر كهذا.. ٩٠ بالمائة من الناس يولدون بعد اكتمال شهور حملهم.. القليل جدًّا يولدون مبكرا.. فلماذا دائما يندرج اسمه تحت طاولة الشراذم والهوامل والناقصين؟.. نزل من بطن أمه صامتًا لا يبكي.. ظنوه كما ظنوا بفولتير من قبل أنه ميت لا محال.. بقي في الحضانة شهرين كاملين.. شارف حدود الموت مرات في هذين الشهرين.. كان أبوه وأمه في حالة نفسية صعبة.. تشبثا به حتى آخر رمق إلى أن شقّ طريقه فتفتّحت الرئة واستقر القلب وبدأ خطوات حياته أو بالأحرى خطوات لا حياته.. نفس المعادلة اللا شيئية تلك.. حياة ونقص في الحياة.. تعادل سلبي لكل مقومات الحياة في خالد.. معادلة حياته العجيبة هي: حياته = حياة – حياة.. لا وزن في المعادلة طبعًا.. معادلة داديّة عجيبة، تذكرنا بأشعار مارينيتي المستقبلية غير المفهومة.

في الإعدادية حينما كانوا يطلبون منه وزن المعادلات الكيميائية، لم يكن يفهم ما معنى الوزن والتعادل والمساواة والاتزان.. لم يقدر يومًا على وزن معادلة واحدة.. دائما إحدى الكفتين تطب دونا عنه.. اعتباطا، يضع أرقاما بجانب أرقام وحين يعرض الأمر على الأستاذ يتعجب؛ على أي أساس فعل خالد ما فعل؟.. فلا يرد.. يخبره أن الكفتين غير متعادلتين.. "يا ليتني أخبرته أن العيب ليس في أنا بل في "رمانة الميزان"، نقطة اتزان الميزان.. إن القانون أساسًا الذي نتحرك وفقه في دائرة الوجود عاطب.. فلست أنا من يصلح الدنيا ويعدلها".

يفتح التلفاز.. يجد دعاء الكروان بفريق عمله العبقري بدءا من العميد إلى عبد الحميد.. من عبد الحميد هذا؟ من المؤكد أن فريق العمل يحوي "عبحميدا" واحدًا على الأقل.. سيطالع التتر إذا تسنى له ليبحث عن عبد الحميد هذا.. ما الصدفة الغريبة التي جعلته يفكر في شخص لا يعرفه في طاقم فيلم أنتج عام (١٩٥٩).. ربما كان عبد الحميد هذا ساعيًا، أو خادمًا بسيطًا ضمن الطاقم.. لكنه دونا عن الجميع –مظهروفاتن وهنري بركات- استطاع أن يخترق جمجمته ليفكر فيه.. طوبى للمهمّشين.. هل عبد الحميد عائش؟.

هل كان يجب على هنادي أن تذهب إلى ما ذهبت إليه؟.. لماذا لم تترك (آمنة) بيت المأمور ويكتفِ الفيلم بنهاية زواج المهندس من ابنة المأمور؟ لماذا لآمنة وهنادي خال كهذا الخال القاسي شديد القلب؟.. لماذا ولدت أساسا آمنة وهنادي في بيئة كهذه؟ لماذا قدر لهما أن يولدا أصلا؟ هناك ألف نقطة كان من الممكن أن ينتهي الفيلم عندها.. لكن قدرًا غاشمًا دوما يدفع الأفلام إلى نقاط الذروة التراجيدية كي يستدر الدموع والآهات والآلام من أعين المشاهدين.. إن القدر الغاشم هنا هو طه حسين.. لماذا أصلا كتب القصة وأيقظ الموات وبثّ فيهم الروح؟.. أما كفته مشكلة "في الشعر الجاهلي" لينخرط في مشاكل آمنة وأختها؟

تماما نحن أيضًا مثل أي فيلم.. هناك آلاف النقاط التي تصلح جدًّا لوضع كلمة النهاية، لنزول تتر النهاية لقصة حياتنا.. لماذا يبدأ تتر النهاية متأخرًا جدًّا أحيانًا ومبكرا جدًّا أحيانا؟.. لماذا لم أجد تتر نهاية مناسبًا لحيواتنا الواقعية، ينزل بالضبط في الوقت الذي يجب أن ينزل فيه؟

موسيقى اندريه رايدر تكئبه.. صوت العميد في نهاية الفيلم يجعله يقشعر منذ الطفولة.. ما كل هذا الجمال والجلال والعظمة في حنجرة طه؟ هل استعاض عن عجزه بحنجرة رائعة كهذه؟.. لماذا لم يستعض خالد عن عجزه بأي فائدة أخرى إضافية؟.. ربما عقله الغريب القوي وذكاؤه الحاد؟.. على أي حال عقله سيشط وذكاؤه ذاهب في دياجير تفكيره.

تراوده فكرة عبقرية: ماذا عن الاستماع قليلا لفيروز.. يعلم جيدًا أن الخطط القصيرة الموضوعة لسماع فيروز تنقلب إلى وصلات طويلة وجلسات تأمل في الصوت والمعنى واللحن.. كيف كان لشعب تنشد فيه فيروزوأم كلثوم أن يثور؟.. يمكن استبدال رئيس برئيس على مرأى ومسمع من الشعب، رئيس كان الشعب يقدسه يوما، ويتغنى باسمه في الشوارع والأفلام..إنهما السكينة.. الاطمئنان.. الأمل في نزول الحلول من السماء.. ألا تتحرك السماء حين تغني فيروز قائلة: سنرجع يوما؟ ألا تحث كلماتها "وستغسل يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية" كل قوى ما وراء الطبيعة؟.. لكان زيوس خاضعًا عند قدميها ملبيًا كل طلباتها مستزيدا من سماعها.

ذات يوم أخبر إحداهن بما يسميه "التطهر عن طريق الاستماع لفيروز".. سألته: وما معنى ذلك تحديدا؟.. فقال ما معناه أن فيروز تغسلنا من آثامنا تمامًا مثلما تفعل الصلاة أو الصوم.. إن التطهر عن طريق الفنون أمر شائع، لكن فيروز تفعل ذلك بتركيزوقوة مؤلمتين حادتين، فتجعلك شخصًا آخر غير الذي كنته قبل الاستماع إليها.

- خالد، هل أنت وثني؟
- أنا إشراقي.
- لا أفهم معنى ذلك.
- ولا أنا.. لا أحب التفكير فيما أكونه.. أكون ما أكون دون وعي.. على الإنسان أن يحيا وكفى.

اسمها "نوران".. على نفس وزن "سوزان".. سوزان طه حسين.. كلتاهما عظيمتان.. نوران جارته.. تعرف عليها مباشرة بعد تخرجه.. كانت لا تزال طالبة في عامها الثالث.. ارتاح إليها وهذا أمر غريب جدا.. يعرف الكثيرين ولا يستأنس بغير القلة، عفوًا قلة القلة.. إن الذي يتقبل رأسه المشرف على الانفجار يستحق بجدارة أن يقترب منه قليلا، نوران تقبلته بكل تناقضاته ومتاهاته.. قرآ معا "كاتولوس" و"بندار" و"يوريبيد".. استمتعت بعالمه الذي حاصره أبوه فيه.. هو لم يجد عالما أروع من عالم هوميروس والشعراء اليونان كي يعيشه.. أما هي فجرّبت هذا العالم، فاستحسنته.. شتان بين أن يكون هذا عالمك الأبدي وبين أن تدخله وتخرج وقتما تشاء.. المرء حين يغلق الإلياذة ويضعها على منضدة مجاروة، تتساقط جدران إسبرطة ويتلاشى الأولمب وأهله، تتضاءل وحوش الجحيم، يضعف هرقل وتخور قواه ويصبح في حجم عقلة الإصبع.. تمامًا مثل الفكرة التي صاغها بركلي عن العالم الذي يختفي حين تغمض عينيك عنه.. إنه

يصبح معدومًا.. أما بالنسبة له- خالد- فهو يغلق بابًا ليدخل من باب آخر.. لا حدود فاصلة بين الواقع والخيال.. الواقع بغيض يمنحك فرصة واحدة إذا كان مبذرًا، الخيال مفرط في منح الفرص.. افتح أوفيد ليتجدد الأمل، نم لتصلح ما لا يمكن إصلاحه.. الأم ماتت، أحيِها.. الأب تزوج من الأم، أوقف المهزلة قبل فوات الأوان، الأم حامل وستضع مولودًا بائسًا، اقتله لو شئت دون عواقب، حتى لو كان هذا الطفل هو أنت، هل جرب أحد أن يقتل نفسه في زمان آخر غير الذي هو فيه موجود؟.. هذا حل عظيم لمشكلة الانتحار.. أن تقتل نفسك إلا قليلا، سوف لن يكون انتحارًا بحتًا، سيكون فقهيًّا حالة بين الحالتين، ومشكلة بين المشكلتين، أو أي حاجتين في وسطهم حاجة ثالثة.. الطفل ولد في النهاية، امنحه الـ... يا للخيال الرحب الواسع المتفاهم.. ويا للواقع الضيق الضنين المتآمر.. امنحه الناقص فيه.. هل النقص خطة؟.. مصيبة سوداء لو كان خطة.. كان يظنه يأتي عفوا دون دراسة أو تخطيط.. ظنه يقع دون قصد.. وقوعه بقصد مشكلة كبيرة.. سيحتاج الأمر إلى زيارة سماوية.

لو أن الحياة تسير كما تسير الأحلام؟.. لكن هل حقًّا نحن ننام لنعيش، ونستيقظ لنحلم، أو ماذا؟ أيهما الأصل النوم أم الاستيقاظ.. أم كلاهما جزء من وهم أكبر؟

شخص ما يطرق بابه.. إن طرق الباب بالنسبة إليه كما الطبول تقرع ليتم اقتياد شخص ما إلى حتفه.. هل تتذكر عرجة "عبد الوارث عسر" في فيلم "صراع في الوادي"؟.. هكذا يفعل كلما دق الباب.

(٨)
مواجهة

تاريخ الإنسانية سلسلةٌ غير متناهية من الفرص الضائعة.

ساراماغو

يتحامل على نفسه.. يقوم.. يتوجه إلى الباب.. يفض التعاشيق الكثيرة التي كان يضعها والده وكأنه في سجن حربي.. يجدها: نوران.. يضحك ضحكة كحولية.. تستأذنه في الدخول، فيأذن.. يترك الباب مفتوحًا ويتوجه إلى غرفته ليستر المكشوف منه.. يغسل وجهه سريعًا.. يهندم قدرالإمكان مظهره المبعثر.. ويخرج إليها.

تزيده محاولة الهندمة تشعثا وبعثرة.. تنظر إليه بعين كليمة.. لو جلسا هكذا ألف عام فلن ينطق بكلمة واحدة.. تعرف ذلك جيدا.. لا بد أن تبادرهي.. لا يمكن أن تكون المبادرة في يد شخص يدمن الهروب.

- إزيك يا خالد؟
- تمام.

هذا الرجل قاموس مستغلق.. لكلامه دومًا معنيان.. يحمل القاموس الطبيعي المعنى الدارج.. بينما يحمل قاموسًا آخر باطنيًا معنى مختلفًا تمامًا.. يكفره الناس لووقفوا عند معانيه الظاهرة، لكنه يحمل قلبا مؤمنًا حد الثُّمالة، إيمان ثمل، فطري غيرواع، حتى عن معنى الإيمان ذاته.. لا أحد يستطيع فهمه مثلما

تستطيع هي.. تعرفه منذ لقاءات الطفولة الخاطفة، غير المنتظمة.. يظهر قليلا ويختفي كثيرا.. لا مبرر واضحًا لا للظهور ولا للاختفاء.. تسمع أحاديث عنه وأبيه من خلال زيارات بعض الجارات لوالدتها.

- إنه رجل مجنون.. غريب الأطوار.
- سيجن ابنه لو بقى تحت رعايته هكذا.
- سألت الرجل ذات مرة عن ابنه: لماذا يخشى الطفل الناس إلى هذا الحد؟ فأجابني: إنه يرى الناس على هيئة قنطور ضخم قبيح.. ما معنى هذا القنطور يا أم نوران؟

تنساب كلمات فيروز التي كانت لا تزال تشدو: كأنك ما حدا.. ضايع بها المدى.. نعم إنه ضائع في مدى غير معلوم.. متاهة قاتلة تجعل عقله يزوي ويضمر.

يغلق فيروز.. تسأله: لماذا تغلقها؟.. ألا تعلم أن ذلك لم يكن مسموحًا به في دستورنا الذي وضعناه لنتفاهم سويا؟

- أبدا عشان أسمعك.
- ممكن تسمعني من غير ما تقفل فيروز.. إنت عارف احنا بنحبها.. إزاي.. وكتير جدًّا كنا بنتكلم ساعات وهي شغالة.
- معلش رمضان بقى وكده.

تضحك ضحكة خافتة ثم تسأله:

- إنت صايم؟
- آه.. آه طبعا.

- يا ترى صيام الأيونيين ولا الإيليين؟

يشاركها الضحك صادقًا.. لا يدري كيف خرجت الضحكة.. لكنها.. لكنها خرجت فعلا..

- لحد إمتى يا خالد؟
- لحد إمتى أيه؟
- لحد إمتى هتهرب؟
- أنا مش بهرب.
- يا خالد أرجوك ساعدني.. إنت عارف إحنا منفصلين من أد أيه؟ من ٤ سنين.
- إحنا مكناش مرتبطين عشان ننفصل يا نوران.
- إنت شايف كده؟
- أنا عمري ما وعدتك بحاجة.. ولا عمري اعترفت بحب أو غيره.
- وهو إلي كان بينا كان محتاج اعتراف؟

يصمت.. يتلفت بعصبية حوله.. تتجمع قطرات الدمع في مآقيه.. ينشج بقوة.. ينفجر في بكاء هستيري.. تميل إليه تحتضنه.. تربّت عليه.. تحثه على تفريغ هذا الصديد النفسي المتراكم عبر سنين.. كيف صرت إلى ما صرت إليه يا خالد؟ كيف تجري وراء هلاكك بهذا الإصرار العنيد الأحمق؟

- لسه الموضوع إياه شاغل بالك؟
- المواضيع كتير يا نوران.. كتير أوي.. مبقتش عارف أعدها.

حدثها عن أسوأ المراحل التي يمر بها الجسم بعد الموت، مرحلة الصمل الجيفي، أو تيبس العضلات Rigor mortis. فعلا، هذه المرحلة صعبة جدا.. مرحلةٌ مذلةٌ جدا، تنال من كرامة الإنسان ومعناه وسموه وعظمته، هل للإنسان معنى أو سمو أو عظمة؟.. هي قهر ونقض ودحض لكل قيمته.. لو لم يكن في الموت سوى أننا نتيبس ونصبح كقطع الخشب والحديد المسندة، لكفاه بشاعةً وتعذيبًا وإهانةً لنا.. ملمس هذه المرحلة يجعلك تشعر بالانتهاء، بالتلاشي، بالعدمية.. لو كان للموت ملمسًا فهذه المرحلة هي هو بعينه.. نحن لا شيء فيما يبدو.. أصفار بجانب أصفار.

في اليوم الذي توفى والده ذهب إلى صفحات الإنترنت وكتب باحثا: ماذا يحدث للجسد بعد الموت؟ راح يتخيل كل مرحلة وهي تتفشى في جسد والده.. يرى بعين خياله ويشم ويلمس في الظلام.. يشم رائحة النتن والتعفن والترمّم.. ما أقسى هذه السبة حين يقال لأحدهم: يا رمة.. إنه وصف شنيع جدا.. يلمس الجسد يستشعره لزجًا متخثرًا.. يلمس دودة بدأت في الظهور.. مع مرور الوقت يكثر الدود، آلاف الديدان.. يتشوه كل شيء تمامًا.. تمامًا.. تماما.. يقارن صورة والده في عقله وصورته في قبره.. كيف هذا الأمر أصبح هكذا؟.. يتعاظم الأثر النفسي فيذهب في إغماءة طويلة.

كم تمنى أن يموت الإنسان حيويًا، ناعمًا، متناغمًا.. يموت برشاقته ولياقته وبضاضته، بدفئه.. لماذا الموت مهين جدًا هكذا؟

- أنا شوفت بابا كده يا نوران.. لمسته وهو متلج وجسمه متخشب.. أحاول أعدل كف أيده المعووج مفيش فايدة.. يعني أيه بابا يبقى كده..

ليه؟.. إزاي؟ ده مش بابا أكيد يا نوران.. هو في الموت بيستبدلوا الجثة بتابوت يشبهها؟

ذكرته بأخيها ابن التسعة عشر عاما الذي فقدته في إحدى فعاليات ثورة يناير وفي أثناء تلك الأحداث الجسام التي تلتها وكيف ضاع دمه بينما "ناس ضد ناس علقوا بهالدني".. أعجبه التوظيف الفيروزي جدا.. كانت تحاول أن تخفف عنه وجعه بأن تذكره بوجع الجميع.. لكنه لم يكن يقتنع.. إن من تطفئ أوجاع الآخرين ناره شخص مختل بالضرورة.. سيبقى كأس الآلام مؤلمًا حتى لو شرب منه كل من في الأرض جميعا.. الكثرة ليست مبررا.. والألم سنة لا يمكن تجاهلها.

أخفقت محاولتها على صخرة منطقه الحادة.. تشرذمت، تناثرت.. لم تجد ما تدفع به الألم إلا تجديد طلبها القديم.

- خالد.. تعالى نتجوز.
- إنت بتقولي أيه يا نوران.. إنت اتجننتي؟ أمال لو مكنتيش تعرفي كل حاجة عني؟
- أنا قابلة.. قابلة كده يا خالد.. أنا عايزاك إنت.. بس.
- أنا مش هقدر أفرض ضعفي على حد.
- هنحط ضعفنا على بعض نبقى أقويا يا خالد.. لازم تتخلص من العقدة دي.. إنساها.. الجنس مش كل حاجة يا خالد.

لم يمش في جنازة والده إلا عدد محدود جدًّا من الناس.. كانت (نوران) أحدهم، وهم بأي حال لم يتعدوا الخمسة عشر شخصًا.. بعد الانتهاء من كل هذا رجع وحيدا يقابل نفسه في ألف مرايا عاكسة ليواجه جيشًا جرارًا من الذكريات الشخصية.. هل الذكرى هي عكس الوجود؟ هل كل ما نتذكره هو الذي – بالضرورة– ليس موجودا، أو لم يعد موجودا؟ على مر الأيام وحين يحل الظلام كان يتذكر كلمة "بولغاكوف": ما معنى هذا الضعف وهذا العار في الليل.. بالأمس فقط كان يؤمن بمقولة العقاد التي تقول: إننا نكبر بالليل جدًّا يا صاح.. لم يعد يكبر، الليل أصبح سلسلة متكررة من التقازم، التصاغر، الانمحاء.

الأشياء التي بالأمس كانت محايدة أصبحت اليوم مؤسسة لقصة وجعه وآلامه.. كل مستلزمات والده تكاد تنعيه بأسى.. شريط أقراصه الذي فض آخر قرص فيه وتركه، لا زال تمامًا كما هو كما حطه بيديه، حتى أعقاب السجائر في المنفضة سجائره.. آثاره لا زالت ترتع في كل مكان وركن.. الأشياء المرصوصة لا زالت تحمل طاقة وضعه الخاصة، بترتيبه الخاص لها.

لقد بدأت بالفعل ما كان يسميها "حرب الصور والأصوات".. الصور تتوالى على رأسه معها الأصوات.. يحاول استذكار التفاصيل والمواضع التي وقعت فيها أحداث استثنائية بينه وبين والده.. يلوي عنق الأماكن حالبًا كل ما فيها من ذكرى.. يقيم ردود فعله أيها كان أفضل ما كان وأيها كان يحتاج ردود فعل أحسن.. يكتشف الإنسان متأخرًا أنه لم يؤد أفضل ما كان متاحًا له.. وأنه على طول ما عاش يسير الحياة وأموره ولا يصنعها.. يشعر أنه في أدقّ أجزاء حياته كان مشاركًا ثانويًا وليس متفردًا مستقلًّا مسئولا.

لقد آمن دوما خالد بأن الإغريق كانوا أكثر تسامحًا بشأن الموت.. لذلك فقد أحبهم كثيرًا وتمنى ألف مرة لو كان إغريقيا يصارع الحياة فتنصرع.. يواجه الميتافيزيقا فتستسلم.. جغرافيا كان يمكن للأبطال أن يجتازوا بضعة أنهار وعددًا من الهضاب والجبال كي يدخلوا عالم الموتى، العالم الآخر، حيث يلقون أحباءَهم وربما يبعثونهم مرة أخرى، بحيل لا ينضب معينها.. لا يواجههم إلا القليل جدًّا من العقبات الفيزيقية التي تصعب مجابهتها لكن لا تستحيل.

الساحرة إركتو امتلكت القدرة على إرجاع الروح إلى جسدها.. كاد أورفيوس يفعلها لولا فضوله الذي أضاع يورديس وإلى الأبد..

لا توجد "إركتو" تنفعه لا في بعث والده حيا مرة أخرى ولا في بعث قوته وطاقته الذكورية التي تجعله يعوض فقد أبيه بكسب حبيبته أو التي من المفترض أن تكون حبيبته.. إن حياته بلا أي "إركتو" على الإطلاق.. كل شيء هامد، هاجع.. ومن لم يمت فهو في غيبوبة.

كم مرة ناقش نوران حول لا معقولية اسمه الذي يحمله: "خالد".. هل كان والداه يسخران منه بهذا الاسم؟ أم كانا يتمنياه له.. في كلتا الحالتين لا يرى مسوّغًا ولا مبرّرًا له.. فهما إما يسخران ويذكرانه بطريقة عكسية بالفناء، أو هما يتمنيا له خلودًا حقيقيًّا موقنين بأنهما يتركانه وحيدًا متأفّفًا من الوجود والموجودين دونهما.. صحيح جدًّا أن الموت مسألة مصالح.. الكل يتمنى الموت قبل أحبائه لأنه يشفق على نفسه من فقدانهم والعيش دونهم.. لا يفكر أبدا بهم هم حين يموت قبلهم تاركا لهم الحياة خلوا من المعنى.. لذلك فسخرية والداه كانت أرحم على نفسه من أمنيتهما.. إن سخرا من التسمية، فليسخرا، وإن تمنيا فإن أمنيتهم سادية جدًّا وقاسية جدا.

خالد.. أي خلود وأي اسم فاعل هذا؟.. يتساءل: "هل الخلود فعل أو منحة؟".. هل يجب أن يسمى خالد أم مُخلّد.. وفي الحالين "أي خلود أحصل عليه؟".. إنه ميت لا محال كما ماتت أمه وكما مات أبوه وتركاه غير رائِفين بحاله.. ربما اسمه فقط هو ما يخلد.. الأسماء شيء آخر غير أصحابها.. لكن حتى حين يموت ويترك اسمه ما الذي قد يجعل هذا الاسم باقيًا وسط مئات الآلاف من الخوالد الآخرين؟ ربما فعل بطولي؟ لا يمتلك سبيلا إلى ذلك، هو منهزمٌ جدا.. هل عمل فني؟ ربما الرواية التي يكتبها تفعل.. لكنها مليئة بالصديد والدم والإفرازات.. رائحتها تزكم الأنوف بأوجاعها.. فهل يكتب لها بقاء ولاسم من كتب عليها يوما؟

يتذكر "كاستور وبولكس" ابنا "ليدا".. كاستور بشري الأصل ابن الإنسان الفاني.. وبولكس إلهي الأصل ابن زيوس البجعة.. هما توأمان تعلقا جدًّا بعضهما ببعض.. لكن إلى أي مدى؟ إن كاستور لا بد وأن يموت يوما.. بل هو يموت بالفعل.. المأساة كلها تحل برأس بولكس.. خلوده أصبح نقمة.. حياته الأبدية ترف فارغ ولا نهائية مهلكة.. ما معنى أن نعيش إلى الأبد بعيدين عمن أحببناهم وتعلقنا بهم ونشأنا نطوف بوجودهم وكأنهم كعبة نتطهر فيها من آثامنا؟ لا معنى طبعا.

كانت تضحية بولكس معقولة جدًّا.. لا يجد أي ذريعة لمنتقدي فعل بولكس.. فليذهب الخلود إلى الجحيم، وليذهب معه المنتقدون، وأما بولكس فليشق -بأي وسيلة كانت- الطريق إلى أخيه الذي أحبه بصدق.. والذي كانت لحظاتهما الطارئة والسريعة في حد ذاتها خلودا.

(٩)
(خالد)

كنديد: ولكن ما الغايةُ من تكوين هذا العالم إذن؟

مارتن: لاستفزازنا

فولتير

لماذا تصر نوران على تجديد أمل مات؟.. الأموات لا يرجعون يا نوران.. دعيني أنهي المهزلة.. لماذا تمنعينني من التضحية بنفسي، لتضحي أنت بذاتك؟.. العهد بيني وبين نفسي ألا آذي أحدًا إلاي.. أنا مجال انتقامي من كل شئ.. لم أعد أنفع.. المشكلة كبيرة، والأكبر أن أحدًا لا يعرف ما هي تحديدًا كي يحاول حلها.. تختفي المشكلة الوجودية ويبقى أثرها يشوي نسيج القلب والصدروالأمعاء كماء النار.. أسمي هذه الحالة بـ"الحموضة السارترية" إنها ليست حموًا طبيعيا، إنها تآكل أعضاء تجويف الإنسان.

أنت أجمل من أن أشوّهك.. لو أن الأمور غير الأمور والظروف غير الظروف لجئتك جاثيا.

ذات يوم ذهبت مع والدي إلى مزرعة دواجن.. كنت طفلا لا أزال.. استهواني التنوع العظيم في المزرعة.. البط، الأوز، الدجاج، السمان، الحمام.. توجهت إلى أطفال الدجاج.. الكتاكيت.. وجدت تجمعا كبيرا جدًّا منهم.. عمرهم يوم أو اثنان.. بين الجموع التي تخوفها حركة يدي، أجد تحت الأقدام جثث كتاكيت نافقة.. يدوسون عليها دون وعي.. اللا وعي الجمعي يحركهم فيقتلون بعضهم.

بجانب قدمي لاحظت قدم كتكوت تتحرك في قوة.. أدركت أنه يعاني آثار النزع الأخير.. ببطء -لكن بمثابرة- تتحرك القدم بحثًا عن الحياة المتسرّبة من الجسد.. لم أنسَ قط هذا المشهد طوال عمري.. هذا الكتكوت الذي لم يكد يخرج من عالمه البيضي اللزج، لماذا يموت؟ طب، لماذا خرج أصلا؟ لماذا تم "ابتياضه"؟.. يخرج الطفل من البيضة يفاجأ بعالم كبير جدا، لكنه رغم ذلك ضيقٌ جدًّا لا يسعه.. يختنق الطفل.. دون أي حدث مرضي، تجده يعاني الموت فجأة.. الكتاكيت تموت بدون أي سبب باثولوجي حسب ما أعتقد.. إنهم يموتون لأنهم لا يفهمون العالم، لا يتقبلونه.. إنهم مذهولون، غير واعين.. إنهم يموتون وجوديا.. هل يجوز لطفل أن تكون أولى تجاربه بالحياة الموت؟.. مثل الكتكوت تماما.. ومثلي أنا؟ هو مات وأنا عانيت من فقدان أمي؟ هل هذه خبرة قويمة؟ هل يمكن أن تنتج شخصًا طبيعيا؟.. أحيانًا أحسد حتى الكتكوت.. لأن خبرته تنتهي بالموت، أما خبرتي أنا فتبدأ به..

ثم أعود فأسأل: لماذا؟

أتأمّل أداة الاستفهام "لماذا"، فأراها كحبل له طرفان وفي المنتصف عقدة، يتم تثبيت الطرفين بالسقف بينما تتدلى العقدة لتضع رأسك بداخلها، ثم فجأة تنزلق قدماك لتخر ميتًا.. لماذا؟ لماذا حدث كل شيء، كما لم أرد؟.. لماذا لم يحدث أي شيء كما أردت؟.. لماذا راوغتني كلُّ الأحلام؟ لماذا طاردتني كل المنغّصات؟.. لماذا.. لماذا.. لماذا.. ينفلت جسدي من علٍ.. ويحدث كل شيء سريعًا سريعا.. دون أن أعرف لماذا؟.. لـمـا ذا؟

من يومها أدركت أن موت الدجاج محزن وكئيب.. تفهم الدجاجة أن الموت قادم.. فتنعزل لتواجهه وحيدة بشجاعة.. حين تلاحظ وجهها البائس الصغير ستتعجب من قدر الهم والكمد المرتسم على ملامحها.. الدجاج يعرف معنى المرض.. يصبح حزينًا جدًّا حين يمرض وحين يداهمه الموت.. في المقابل حين يكون عفيًّا، قويا تجده مرحًا جدًّا، منطلقًا.. يعرض عليك عروض سيرك عظيم ترفيهية.

أنا تمامًا مثل الكتكوت.. أشعر أني لم أولد لكني فقست.. أتيت إلى العالم بلزاجتي.. لم أستطع التخلُّص من تلك اللزاجة.. إنها خاصية، سمة من سماتي.. أتحرك في العالم كما لو أنه مستنقع كبير وأنا غائص فيه إلى خصري.. كيف يمكن لشخص كهذا التحرك؟ تستغل الحياة بطئي ولزاجتي وعدم قدرتي الطبيعية على المطاردة واللحاق لتسلبني أسمى كل شيء وأنا أتفرج.

لدالي لوحةٌ غريبة ذات اسم أغرب تدعى "الطفل الجيوبوليتيكي يشاهد ميلاد إنسان جديد".. يطغى الاصفرار على أجواء اللوحة.. يخرج رجل مكتمل البنيان من بيضة ضخمة.. تنساب نقطة دم كبيرة دليل المخاض العظيم.. على مقربة تقف امرأة قبيحةٌ عاريةٌ تمامًا وبين فخذيها طفل صغير.. هل يخرج الرجل كبيرًا من البيضة ليتقازم أمام هذا العالم الغفل، ليصبح طفلًا معتوهًا تحرّكه امرأةٌ شمطاءُ أشبه بالجثة؟.. هل الطفل الجيوبوليتيكي هذا هو الرجل بعد أن تسخطه الجيولوجيا والجغرافيا والبولوتيكا والموت؟.. لا تنس أن البيضة تحمل شبه خارطة مشوهة للعالم، لهذا دلالة دالية مهمة.

دائما هناك مشهد يداعب مخيّلتي.. كل شيء صامت تماما، ثغرات على سطح الأرض تنفث بخارًا حارًّا جدا، كالذي نشاهده من فوهات البراكين أو عند بعض

صخور البحر.. لا أحد حولي على مرمى البصر.. البخاريتصاعد، تزداد الرطوبة.. تتخلص الأرض من خزين ملايين السنين من الطاقة المكبوتة بداخلها.. تتنفس.. يحل الهواء البارد أجواء تحت الأرض المشتعلة.. هل الأرض غاضبة منا؟.. هل شوهناها مما أثار حفيظتها علينا.. هل ما أراه تراكمات آلاف السنين؟.. هل مرَّ كل هذا؟.. هل عاشت الأرض كل هذا العمر؟.. كم جيلًا مر فوقها.. كم من القصص بدأت وانتهت.. كم من الحيوات بزغت وانطَمَرت؟.. الواقع أن العالمَ غريب، غامض.. مريب أحيانا، بل كثيرا.. ما كل هذا الجهل الذي نعيشه؟.. كل هذا العلم لم يفك شيفرة الحياة العويصة.. في الواقع كل الإنجازات العلمية تبقى محض هراء، ما لم تقهر الموت، أو تقدم لنا شيئًا ما بديلا أشبه بالأبدية.

سألتني نوران ذات يوم: ما الحقيقة؟ كانت قد فقدت وقتئذ أختها الصغيرة في حادث سيارة ساذج.. هل وصل حد احتقار الإنسان أن يموت في حادث سيارة؟ أين قصص الموت العظيمة؟ لماذا مات كامو في حادث سيارة سخيف.. وهو من هو!

أثارني كلامها فذهبت أكتب:

"يقر في بالي أحيانًا كثيرة أن الحقيقة أحد أمرين: الأول: أنها فكرة بسيطة جدًّا غير مركبة، رهيفة غير معقدة.. أستشعرها شفافة، هفهافة مثل النسيم لا يمكن القبض عليها.. وهي لبساطتها قد تكون في كل شيء حولنا، ولا نستطيع رؤيتها قط في أي شيء أبدا..

الأمر الثاني: أن الحقيقة غير موجودة أصلا.. فهي لا زالت في طور التشكل والتكون بعد.. تتراكم خبرات اتفاقنا واختلافنا، نجاحاتنا وإخفاقاتنا، اتحادنا وتفرقنا.. ستظهر الحقيقة مع فناء هذا العالم.

ستتشكل الحقيقة من بين كل هذا الضباب، من التناقض الفاقع الذي يغلّف الحياة، من الحماقة المسيطرة والحكمة الغائبة.. من السعة والضيق.. نحن نصنع الحقيقة يا نوران.. ندفع التفاعل الحيوي المستمر في قلب هذا الكون والذي سيسفر في النهاية عن الحقيقة الكبرى العظيمة، الأم الغائبة والسند الضائع والغاية الناقصة والمسعى الذي لا وصول له".

كنتُ وقتها لا أزال أكتب بشكل طبيعي قبل أن يغلبني المزاج البوكوفسكي السافل.. المزاج الذي جعلني أنهر الحياة وألغم كل نصوصي بالسباب والشتائم.. أصبحت منذ فترة أزن الكلمة النابية وكلما ثقل حملها وزاد وقعها كلما آثرتها على غيرها.. الحياة ضربٌ من التشويه والتشوش.. علمني أبطال بوكوفسكي أن أفضل طريقة لمواجهة الحياة هو بالفعل اللا إرادي الذي يواظبون عليه.. يمدون أيديهم تحت سراويلهم ويهرشون.

طبعا كنت أهبل كما العادة.. فنوران لم تكن تنتظر مني هذا التنظير الجاف للحقيقة.. الحقيقة وقتها كانت حِضْنًا تفيض من خلاله كل أوجاعها.. في الواقع لقد حضنتها بينما احتفظت بهذا الكلام شبه الفلسفي في مدونتي اليومية.. بالطبع أنا أُلَعْبِكُ الأشياء كثيرا، لا أعرف هل استطعت إيصال المراد أو لا.. أنا نفسي ضللت.. هل أنا أهبل – كما قلت- لأني أرسلت لها الكلام الجاف عن الحقيقة ثم حضنتها، أم حضنتها ثم أرسلت الكلام.. أم أرسلت الكلام واكتفيت بحضن مجازي، أو حضنتها فعليا ولم أرسل شيئا.. أم تراني لا فعلت هذا ولاذاك، فأبقيت على الكلام في المدونة وعلى الحِضن بين أضلعي؟.. حقيقة لم أعد أتذكر.. سأبحث عن المدونة، مصيبة ألا تكون هناك مدونة أصلا!

أعلم أن أبي ظلمني.. ظلم المحب.. نحتار حين نقيّم هذا النوع من الظلم.. أو هذا النوع من الحب.. لقد أراني الحياة من ثقب إبرة.. افتقدت دوما للتنوع.. أحبني كثيرا، أعلم ذلك بتفهم.. لكنه لم يكن يمتلك سبل سد الفراغ الشاسع الحادث في حياتي.. ربما هو أب نموذجي، لكنه لم يستطع أن يكون أكثر من أب في وقت احتجت لبدائل كثيرة لأشياء جمة تنقصني.. أم، أخ، أخت، خال، خالة، عم، عمة، صديق.

أغلق أبي علي الباب، فرض علي نوعًا من سياسة الستار الحديدي.. هو يحب ابنه بصدق لكن طاقة الرجل الكهل الذي تزوج على كبر لا تطاوعه لقضاء أوقات لعب معه.. التزاماته الأكاديمية تحول دونهما.. يستشعر الطفل حبه فيما بعد الأكاديمية، لكنه أيضًا يستشعر عجزه عن المجاراة.. يخاف –الأب- علي الطفل فيحكم سياسة الحجب أكثر.. يبحث الطفل عن منفذ ربما هنا أو هنا في هذه الأركان من ذلك المنزل.. فلا يجد إلا بابًا واحدا.. المكتبة.. يجرب فتح بابها فيجده بابًا عظيمًا لا يفضي به إلى عم زكريا البواب، وإنما إلى عوالم مغبرّة ممتلئة نابضة وملوَّنة.. آلهة يثورون ويشتهون ويمكرون.. أبطال ذوي قوة وبأس يتحدون ويتمردون ويكفرون.. في البداية كان عالمًا مزعجًا لكنه بدأ التعود على ضجيجه.. وصاحب القناطروالوحوش والأبطال والآلهة وأنصاف الآلهة.

أنظر حولي فلا أجد أبي بل هرقل.. أبحث عن أمي فلا ألمح لها أثرا، فأذهب إلى كيرون لعلي أنال رضاه فيقلني إلى عالم هاديس حيث ربما تكون أمي هناك تتثاءب وتتمطى من الملل.

لم أجد أي بديل واقعي سوى نوران.. ومن بعدها ميساء.. هما من لحقا الباقي مما خلفته حرب طروادة، أطلال أناي.. لكن النقص الجديد الذي استشرى في حياتي لاحقا لأزمة الأسطورة كان يجعلني أتماس معهم دون أن أذوب فيهم.. هذا النقص أزمة مختلفة، حقيقية لا ميثولوجية، فسيولوجية، تناسلية.. تشوه جديد من تشوهات الحياة.. ربما أردت حين داهمني هجوم ميساء الاستسلام التام لها لتعبث بي.. لتفعل كل ما لم يحدث لي قط.. ربما أتمنى فعلا الموافقة سريعًا على عرض نوران بالزواج مني.. لكن الأمور تتعثّر.. أقدار الناس تنزل تباعًا وأقداري تحجل في مشيتها، تضل طريقها.. تسلك دروبًا غير ممهدة.. أظل أنتظر وتظل تتوه.

لقد حصلت على سوء حظ الثلاث أو الأربع أبناء اللائي كان من المفترض أن يرزق بهم أبواي، في حالة لم تتوف الأم في وقت مبكر جدا.. ماذا كان عساهم سيكونون هؤلاء الإخوة؟.. طيبون بالطبع.. أسميهم على الترتيب: جلال ونور وريم.. ولدان - أنا أحدهما- وبنتان.. كم تمنيت أن تكون لي أخت صديقة، أرمي كل حمولي عليها.. في الواقع لو صح أن كل الاحتمالات تحدث في عوالم أخرى موازية –مهما ضعف الاحتمال واعتل– فأتمنى أن يكون شقائي تخفيفًا لشقائهم وحظي شفيعا لحظوظهم.

أعيش معهم وأتواصل معهم أحيانا.. يملئون فراغي.. فراغي الشاسع المترامي.. لكن كيف يمتلئ الفراغ بالفراغ؟.. إنها استحالة منطقية.. لذا فأنا سلسلة متراكبة من الفراغات واللا شيئيات، تتراكم لتكون جوهرا عدميا غريبا.

لا أدري وضع هذا التوصيف فلسفيًّا، لكنه شعوري على أي حال ولا أحتاج للفلسفة كي أعبر عن نفسي بالطريقة التي أراها مناسبة حتى وإن كانت غير

دقيقة من وجهة نظر ديكارت أو كانت.. يكفي أن هومر سيباركها يوما ما وأن دانتي لن يغضب كثيرًا إذا علم بها.

عبر أي وسيلة يمكن الانتقال من عالمنا إلى عالم إخوتي الموازي.. لا توجد وسيلة إلا العقل.. هذا العقل الذي أكلته الحدوتة الجميلة عن سيرينات وحوريات وعمالقة وأقزام.

(١٠)
الهو

أُنكش الفحم في المدفأة ودع اللهب ينطلق ليطرد ظلمة الظلال.

فيليب لاركن

قبل كل ذلك بأسبوعين غاب خالد في إغماءة حمى شديدة.. على سطح بلورة صافية تداعت المشاهد غير مرتبة.. تبدّت له أشياء لا جامع ولا مشترك بينها.. رأى ثلاثة أخوة له يلاعبونه.. يطلبون منه مشاركتهم لهوهم.. كانت والدته تجلس في فرحها بجانب أبيه ممسكًا يدها ضاغطًا عليها بحنان.. الغريب أن رأس أمه كانت شبه مخفية لا يستطيع تبين ملامحها تحوطها طاقة نور كالتي تظهر حول رؤوس القديسين في الأيقونات المسيحية القديمة.. هو لم يرها قط من قبل.. ولا صور لديه يمكن أن تعين عقله اللا واعي على تخيلها أو نسج مثال لها.. كان ابنه –ابن خالد– يعبث في الفرح هنا وهناك.. من وسط الجموع خرجت نوران تنهره معاتبة إياه على فوضاه.. أمسكته بيدها وتوجهت شطر خالد الواقف مبهوتًا من كل شيء يدور حوله.. عقدت ذراعها بذراعه ثم انزلقت راحة يدها لتستقر في راحته.. وبخها غير مدرك:

- ألم أقل لك: لا يا نوران؟

فردت باطمئنان وراحة:

- في النهاية استطعنا اجتياز كل شيء يا خالد.. ها هو ابننا ثمرة حبنا.. وها هي أمك، وأبوك وإخوتك.. حدث كل شيء تمامًا كما تمنيت.

جاءته ميساء من الفراغ ربما.. الأشياء تجري ها هنا بغير نظام أو ترتيب..

- من لقى أحبابه يا خالد...
- ميساء.. آسف آسف جدا.. أنا لا أفهم كيف حدث ما حدث!
- على ماذا؟
- على أنني تخليت عنك.
- لا يهم، كوني زوجتك الثانية لا يضايقني.. تمنينا أنا ونوران أن نكون معك فصرنا.

لا يفهم خالد شيئا.. كل شيء معجون.. كل شيء مختلط..

على بعد، رأى كيوبيد شاهرًا قوسه مصوبا إياه في شتى الاتجاهات.. هذه جمع حب وعشق مغفور له..

جاءته بعد قليل أثينا، لثمته على مرأى من زوجيه.. ثم وَشْوَشَتْ له:

- منذ متى والعالم مفهوم يا خالد؟
- والحكمة يا أماه؟
- لقد انتفت يا بني.. غدر بها زيوس حين رأي أن أفعاله لا تستقيم مع الفهم السليم والحكمة الواجبة.. نفاها ونفيني.. أصبحت غريبة يا بني.. وجودي أصبح موضع ريبة وشك.

جاءه دالي فصافحه.. وبلمسة من يده السحرية تحول كل شيء إلى مكونات مائعة.. الساعة والضيوف والأبناء والأهل.. كل شيء.

- أرأيت يا خالد؟ إن الوضع مُرْبِكٌ جدا.. لن تفهم العلاقات الدائرة في هذه الغرفة، في هذا العالم، إلا حين تميع.. حين يسيل الكل.. وضوح كل شيء بذاته غير ممكن.. انصهارنا وتداخلنا وانهراسنا أوقع.. بل وأدعى للفهم.

تنهّد دالي ثم أضاف:

- في البدء كنا كتلة مادة متداخلة، مختلطة.. ثم كان انفجار عظيم؛ فتشتّتْنا وصار لكل منا مادته التي يظنها تخصه وحده، وما هي في الحقيقة إلا خاصة بكل البشر أجمعين.. نحن شركاء في المادة يا خالد.. وكذلك في الروح، أو أي ما تحب أن تسميه.. كنا حقيقة متكاملة فصرنا أوهامًا ناقصة.. خيالات عالم واحد، قريب بحجم قبضة اليد.

بتلويحة أخرى أرجع دالي كل شيء على ما كان.. لكنه أتبع حديثه:

- أردتك فقط أن تستوعب.. الأشياء لا تفهم حين تكون منضبطة ومنسجمة.

ضاق صدر خالد بالغرفة فخرج إلى الشرفة ليستنشق هواءً طازَجًا.. شيء ما يكبس على صدره.. شيء ما يجعله يعاني من نوبة ضيق واختناق..

لم يكد يستقر بشرفته حتى وجد هيرمس يخبره أن أمه قد ماتت.. وأن نوران وميساء يلطبان الطلاق.. وأن إخوته يتبرؤون منه.. وأن والده سافر هربا.. كل شيء يتبدّد بإصرار عجيب..

- فيما كان ما كان ثم لماذا يحدث ما يكون الآن!

يشتم رائحة غريبة.. رائحة بيض فاسد.. يغلب الصفار على الجدران والأشياء.. تسيل الجدران، يذوب كل شيء.. تزداد الرائحة وطأة.. يختنق.. يسعل.. يشعر بغثيان شديد.. ميل رهيب للقيء.. يتماسك.. ثم ينفجر جوفه.. تخرج منه بيضة كبيرة.. تسحب كل ما حوله، ثم تسحبه أيضًا في مشهد عكسي غريب.. يحاول الخلاص، المقاومة، تكسير القشرة السميكة.. لكن اللزوجة تمنعه.. تحد من حركته.. تشلّه تماما.. تنغلق البيضة بإحكام..

ثم يفيق أخيرا!

(١١)
(نوران)

إذا كان المنطق صاحبَك لا يعني أن تعتمد عليه دائما.

زوران جيفكوفيتش

لا أحد في هذا العالم يفهم خالد مثلي.. يروح ويجيء، يلف العالم، يحتار الناس في شأنه.. يلوي أدمغتهم بأفعاله لكني أنا أفهمه تماما.. بالنسبة لي هو كتاب مفتوحٌ واضح جدا.. تحت كل جملة في هذا الكتاب حاشية توضحها وتفسرها، وأعرفها بحذافيرها.. هو يعرف جيدا أني أفهمه.. أخبرني بكل شيء وأمدني بدون قصد بكل مفاتيح شخصيته، وكل الدوافع التي بناء عليها يقدم على فعل شيء أو يرجع عنه.. أو يلتزم الحياد التام..

هو إنسان رئيف جدا، طيب القلب بشكل غريب.. في طفولته حين كان القلائل من الأطفال يتنازعون معه على شيء ما؛ كان يتركه لهم وينسحب.. لم أره يومًا قط يتعارك مع أحد، لم ألحظه قط يماطل من أجل شيء يتمسّك به.. في نظره هذا العالم لا يخصّه ليس عالمه، هو افتراضيٌّ جدًّا فيه، "إنه عالمهم" هكذا يقول تاركًا اللُعبة خاصته لطفل آخر دون أن تدمع عينه.. مسالمٌ لدرجة يحسبها الناس سذاجة.. يدرك رأي الناس فيه، وحين أنبهه إلى أن للقلم سياقًا وللسيف سياقًا وأن الحكمة في مراعاة الحال، كان يقول:

- أعرف لكن ما باليد حيلة. هكذا أنا ولا أستطيع فعل شيء آخر!

وحدته جعلته سريع التعلق بالأشياء البسيطة جدًّا التي تشاركه لحظات طارئة أو سريعة من حياته.. كان يتردد بشأن إلقاء علبة المياه الغازية بعد أن تفرغ، لأنه صاحبها لفترة وجيزة لكنها كافية ليتعلق بها، ليصادقها.. منفضته ممتلئة بأعقاب السجائر التي استسلمت بين أصابعه لتنحرق من أجله ولا يستسيغ عقله فكرة رميها من النافذة أو في سلة المهملات.. القلم الفارغ يحتفظ به في درج خاص، فقد كان يرى التخلص من قلم استعملته وانساح حبره معبرًا عما بداخلك؛ خسّة وقلة ذوق..

خالد ضحية.. ضحية الحب الزائد والفقد الزائد..فقد أمه فوالده.. لا أحد له.. كل ما أحبه فقده.. وكل ما كان يمكن أن يحبه لم يربحه.. حتى طبيعته فقدها.. لم يخبر أحدًا على الإطلاق إلاي.. كان سرًّا وقت كان للسر معنى.. لكن الآن وبعد كل شيء لم يعد هناك داع لأي سر.

بعد الانتهاء من الكلية تقدمت إلى خالد كي أطلب يده.. نعم أنا تقدمت له – لم يكن ذلك سهلا بالطبع، فأنا من عائلة إلى حد ما محافظة وقد واجهت صعابًا خاصة بأبي وأمي، لكن لحسن حظي أنهم تفهموا وجهة نظري الكلاسيكية- (سأحاول شرح وجهة النظر تلك فيما بعد).. أخبرته أني أريد الزواج منه.. لا يمكن تقييم هذا الفعل من المنظور الطبيعي للحياة.. اقلب الحياة مع خالد كي تستطيع الفهم.. اقلب المسلّمات، اقلب العادات والتقاليد كي تدخل عالمه، كي تبدأ لعبته معك.. لو دخلتها بعالمك الوقور جدا، المنطقي جدا، الصارم جدًّا في مبادئه، ستصطدم به.. بالطبع ليس كل الناس مطالبين بالدخول إلى هذا العالم.. فقط محبوه، المحتاجون إليه، بكل مثالبه وكل جنونه.. أو المحتاج هو إليهم بشدة ويدركون بالكامل عمق وحدّة هذا الاحتياج.

لكن هل يمكن لأحد أن يكون في احتياج إلى "خالد"؟ البعض يفهم أن خالدًا يحتاج من يدعمه، يخفف عنه، يواسيه.. لكن ما عساه قد يحتاجه أي شخص من خالد المغلوب على أمره، المُهَرْطِق؟

في الواقع لا هكذا يتم الحكم على أمور العاطفة والقلب والحب.. إن محاولات تطبيق المنطق على تلك الأمور سوء فهم.. أحيانا كثيرة تحتاج المرأة إلى مواصفات عكس ما تتمنّاه عمومًا في أي ظرف عادي طبيعي.. قديما كانت صورة فتى الأحلام –البطل- محددة تمامًا بحلاوة شكله وطلاوة حديثه وشجاعة قلبه، يأتي بفرسه من بعيد ليأخذ حبيبته المستضعفة ويرحل بها إلى حيث تنتظر جنة الله على الأرض، وحيث يحيون حياة رغدة مديدة، يتوالدون ليخرج من نسلهم نسخ مجسدة من البطولة..

هذه الرؤية التقليدية جدًّا لفتى الأحلام لم تعد تصلح في عالمنا المشوش الغائم.. حيث الصور لا تخبر يقينا عما ورائها.. في لقاء صحفي قديم لأنطونيوني –المخرج الإيطالي– قال:من هذ الذي يمكن أن نسميه بطلا في عصر القنبلة الذرية؟.. كلنا إذن مستضعفون في الأرض، أنا ضعيفة وخالد ضعيف، هو صورة اللا بطل، اللا منتمي، الذي لا يجد أي طاقة أو مقدرة لمواجهة التناقض الرهيب في الحياة.. في الواقع أحببت ضعفه الذي يقربه، أحببت لا انتمائه.. أحببت أننا –أنا وهو– نحتاج بعضنا بعضًا، نضيف ضعفنا سويا، فلربما وقتها يمكننا التقدم خطوة، في سبيل "المعنى"، لا إدراكه.

كلُّ محاولاته التي تتعلق بعلاقته الخاصة مع الله، وبذاءاته التي تخرج أحيانًا منه ما هي إلا مراوغة للالتفاف حول ضعفه.. لا يدعي القوة، لكنه يقرّ الضعف في نفسه ويصمت.. أو يحاول ألا يبدو ضعيفًا جدا.. أو حتى ربما يتقوى بترسانة من

الآلهة والأرباب والأبطال الخارقة الذين قرأ عنهم في مكتبة أبيه.. ولم يتوقف عقل الطفل عند حد القراءة.. بل تجاوز الحد إلى أن تبلورت الأساطير وكونت بداخله عقيدة زائفة.

لماذا أحببتُ خالدا؟ لأنه ضعيف، يحتاجني وأحتاج إلى ضعفه.. أحتاج إلى إنسانيته، إلى رقّته التي رانَتْ عليها القسوة ولكنها موجودة في الداخل تنتظر من يحاول البحث عنها أو إحياءها..

لذلك فحين انتويت دخول عالمه قررت – لأنه يستحق- ترك الكثير من المتعارف عليه –الذي يكرهه جدًّا، ولا يدرك لماذا هو متعارف عليه، ولا من الذي جعله متعارفًا عليه– كي أستطيع التوصل معه إلى حل..

نعم، أقولها مرة أخرى: تقدمت إليه.. تظاهر باستنكاره الطلب.. سخر مني ومن كلامي.. وترك اللُعبة التي وضع قواعدها ليناظرني من منطلق وجهات النظر العادية.. حتى هذه الحيلة كنت أفهمها جيدا.. يلجأ إليها حين تضيق عليه الخناق.. تدخل ملعبه، تلعب بمنطقه، تفحمه، فيترك لك الملعب ويخبرك أن المباراة انتهت.. أسحبه لداخل ملعبه مرة أخرى، أعطيه وقتا مستقطعا.. فآخر.. أضغط عليه حتى يعترف لي.

- الموضوع مش هينفع.. أنا مقدرش أكون مسئول عن بيت.
- هساعدك.. هقف جنبك.
- الموضوع مش بس مسئولية، ده قدرة كمان.
- مش فاهماك.
- انا عندي مشاكل كبيرة.. فسيولوجيا مينفعش أكون شريك!

إلى حد ما فهمت مقصده.. لم أكن أتخيل أنه في مباراة كرة قدم ينهي الماتش بضربة قاضية.. منذ متى استعيض بقوانين لعبة الكرة قوانين لعبة الملاكمة.. إنه سوريالي مدوّخ.. ليس من العدل أن يكون إحراز الهدف بكسر فكّي حارس المرمى.. أو عن طريق صلبه على أحد العرضات وتمرير الكورة غصبا..

يا لَربيب الأولمب هذا، صريع الأساطير، الذي حيّرني وعذّبني.. لماذا يحتفظ بكل هذا الكم من المآسي.. كيف لكيان أن يحتفظ بكل هذا في نطاق واحد ولا ينفلق؟ نطاق مسموم..وسامّ! أدرنا العالم فلم نفلح، تنازلنا عن كل المبادئ فلم ننجح.. ماذا تريد إذن يا خالد؟ هل أفقأ عيني؟ هل أنتحر؟ هل أقفزفي مياه بحيرة كارون كي ترتاح؟.. إن مواجهة الحياة معك أصعب من مواجهة آلهة الإغريق جميعا.. لماذا كلما اقتربت منك أطحتني بهراوة سكلوب عملاق إلى أفق بعيد، بعيد جدًّا عنك؟.. لماذا تريد من قصتنا أن تكون أكثر تراجيدية من كل القصص التي قرأناها سويا في الطفولة؟ يا خالد أنت لست سوفوكل، أنت فقط خالد.

لا يوجد في الحياة لا نصف تضحية ولا ربع تضحية.. أو بصيغة أخرى لا يوجد مبدأ ونصف مبدأ.. فإذا كان الأمر من جهتي تضحية كما يحسبها – هذا الأحمق الوثني- فلتكن تضحية حتى النهاية، وإن كان مبدأ –حب ويا لَحظي في حبه- فليكن مبدأ حتى النهاية.

- مفيش خيار يا خالد.. أنا عايزاك أيا ما كان الأمر!
- هههه بنلوب الجديدة.
- لا بنلوب ولا زفت.. أنا معرفش أكون نصف منطقية أو نصف مجنونة.. طالما جننتني يبقى لازم أختار للآخر بنفس اللا منطق.
- يعني اختياري جنون؟

- أيوه.. لأن حبك من الأساس جنون.. جنون أنا اخترته بوعي ومن غير تردد.. جنون لامَني عليه أهلي وصحابي وأنا مصمّمة أمشي فيه للنهاية.. أنا بحبك بكل إلّي إنت فيه.. ومستعدة أعيش معاك بأي طريقة.
- وأنا مش هقدر أقبل تضحيتك إلا بتضحية أكبر.. وحبك إلا بامتنان شديد.. وتضحيتي وامتناني ليكي بيحثوني إني أشكر ليكي العرض ده.. وأقولك: لا.. لا يا نوران.

ربما كان من الطبيعي جدًّا أن أذهب عنه نهائيًّا وأتركه لحال سبيله بعد إهانته.. أو كما سماها: "امتنانه الشديد لحبي"، واضح جدًّا حرصه على عدم تسمية رد فعله بـ"حب أكبر من حبي" على وزن "تضحية أكبر من تضحيتي".. هو يعي تمامًا ألفاظه وكلماته وكأنه يجهزها بعناية شديدة، اللفظ الحادّ في المواقف المضبوطة، ليترك الأثر المراد دون زيادة أو نقصان.. الميزان المحايد الذي لا يحابي لكفة على حساب أخرى.. لو ترك دقته واهتمامه بالتفاصيل هذه واهتم أكثر بالكليات، بالعموميات.. لو أنه أقل تمحيصًا وتركيزا، لو فقد بعض ذكائه أو قدراته العقلية الرهيبة لربما كان في حال أفضل بكثير.. إنه يعيش لعنة الرجل الذي عرف أكثر من اللازم.. لكن ما عرفه جعله يدرك تمامًا أنه لا خير في أي معرفة.. فانقلبت معرفته المرتبطة جدًّا بمأساته إلى نوع من العبث المؤلم المؤذي.

كان عليّ أن أرجع قليلا إلى الوراء.. أتركه يبحث عن ذاته لربما يجدني.. لكن وفاة أبيه كانت تدهورًا جديدًا في قواه العقلية.. لا أعني أنه أصبح مجنونا، بالمعنى الواسع للكلمة.. بل أعني أنه أصبح أكثر وحدة وعدائية.

تنامى إليّ نبأ انقطاعه عن العمل.. بدأت الشكوى منه من كل محصلي الفواتير –ماء، كهرباء، مسحوبات الماركت، مصاريف صيانة العمارة– تتواتر وتتضخم.. أحاول تسديد بعض احتياجاته من دون علمه، لكن إلى أي حد يمكنني هذا؟ بالطبع إلى حد بسيطٍ جدًّا لا طاقة لي بإسكات وسد جميع الأفواه الزاعقة المطالبة بحقوقها المتأخرة..

يكتفي بإحكام غلق الباب عليه من الداخل.. يسمع الشكاوى فيصمت.. يهرُب بالشرب والنوم.. وقراءة أخاريف والده الحمقاء..

كرهت هذه الأساطير رغم تعلقي بها في البدء.. إنها سبب مأساته.. إنها العالم الضالُّ الذي علمه الكذب وجعله يتخفى وراء مُسوح ومُسوخ وأشكال كارتونية لا تغني من الحق شيئا.. إنها العالم الموازي الذي احتل كيانه وسيطر على عقله تمامًا فلم يترك لنا شيئا.. إن الأسطورة تقرأ لتضحك عليها لتنهر بها قليلا، لتفهم منها وضعًا أو حالة زمان ما، لا لتتمثلها وتجعلها مبدأً حياتيا لك..إنها أكذوبة نحاول تصديقها بتعطيل حاسة التكذيب عندنا لنستمتع قليلا لا لتتحول الكذبة إلى حقيقة والحقيقة إلى واقع والواقع إلى عبث ميثولوجي.

أخبرني صديق له أنه يعاني ما يسمى "الميثومانيا".. وهي نوع من أنواع عشق الكذب.. أو محاولة للهروب من الواقع بتصدير الكذب.. ولأن عقله معجون بالتخاريف فقد كانت الأسطورة الإغريقية نبعًا لا ينضب لسلسلة طويلة من الأقوال والأفعال والتصرفات الغريبة الشاذة.. منها أنه يذهب ليقابل الله وأنه سيقنعه بكيت وكيت.. الجميع يظنونه ملحدًا أو كافرًا وهو فقط يحاول أن يتجمل أو أن يتوارى أو أن يختفي.. ذلك لأنه يشعر دوما بالنقص الشديد.. النقص الذي ولدته الوَحدة والضعف الجنسي والأزمات الطاحنة النفسية التي

واجهها ولم يجد يدًا تنتشله منها.. أو بالأحرى التي لم يعطها الفرصة كي تنتشله منها.

ماذا كان يمكنني أن أفعل له أكثر؟ أندم.. لكن على ماذا؟ كان يسميني "المرأة الفاعلة" لأني كنت المبادرة دوما بينما هو "رديد الفعل" لأنه لا يبادر بل ينتظر، ربما لقرون لو أعطيته عمرا.. ينتظر طويلًا طويلًا مثل ثعبان صحراوي مدفون في الرمال يشتهي لقاء ضحية تسعى إليه..
هل كان لا بد لخالد أن يموت؟.. كان لا بد له أن يموت.. هل من الطبيعي؟ نعم، من الطبيعي جدا.. هل مات كما تمنى؟ نعم، مات كما تمنى.. أقصد تحول موته إلى حدث.. حدث شنيع.

مات ولم يخبرنا عن موته شيءٌ إلا الرائحة البشِعة التي انتشرت في أرجاء البيت بالكامل.. ميتة تراجيدية جدًّا تليق بإنسان وحيد جدا..
لَمْلَمْنا بقاياه، كوّمناها داخل قماشة.. وأودعناه قبرًا ضيقًا ربما يسع جثمانه لكنه لا يسع عقله الأهوَج.. تمنيت له الخير من قلبي.. أن تكون حياته ما بعد الحياة أرحم.. أن تتجاوز عن حماقاته.

يأتي الناس إلى الله يوم القيامة فردًا فردا، لا جماعات جماعات، لأن كل حالة إنسانية تستحق أن تقف مباشرة أمام الحكم لينظر في ملابسات أمرها.. كل حالة تستحق أن تقف قليلًا أو كثيرًا أمام الله ينتظرها كل البشر قاطبة حتى يتم البتّ في أمرها.
أحسب أن خالدًا يستحق الرحمة لأنه كان رحيمًا ورفيقًا بكل الناس إلا نفسه.. فلتشفع فيه مواقف الشهامة والمروءة التي وقفها مع المحتاجين والعاطلين والمعدومين، وقت كان يستطيع الوقوف.

(١٢)
المآل

الإنسانُ لا يموت دون أن يوافق على موته.

توماس مان

ليلة الواحد والعشرين من رمضان.. كل شيء ساكن.. لا حركة هنا بالداخل.. صوت عقارب الساعة يبدو وسط الصمت التام كأجراس كنيسة نوتردام.. كم احتار خالد في هذا الدوران اللا نهائي للوقت.. لماذا لم يكن الوقت خطًّا وليس دائرة.. الخط واضح مفهومٌ بينما الدائرة مقلقة غامضة لا بداية لها ولا نهاية.. لماذا دوّخ الإنسان نفسه حين اخترع التقاويم في هيئات دائرية متكررة مملّة.. في حين أن جسد الإنسان وأفعاله وحياته كلها تتبع نهجًا خطيا، فالجسد لا يكبر فيبلى فيتجدد.. بل يبلى فيذبل فيفنى.. لماذا لا تتجدد أجسادنا وصحتنا وقوانا مع كل دورة زمن، مع كل أسبوع وشهر وسنة.. لماذا لا يعود الغائب ويبعث الميت، ويبرأ المريض ويتصالح المتخاصمون؟ لماذا الزمان خصم وانتقاص مستمران من أرصدتنا؟ لماذا لا تنتهي اللعبة عند حد معين ثم تبدأ كما تشاء من جديد؟

ارتاب دومًا في كون الزمان هو الوقت هو الدهر.. يعتقد بحس خفي أن كل مفردة منهم تعني شيئًا آخر مختلفًا عن معنى المفردة المجاورة لها.. صمويل الكسندر العظيم قال جملة غريبة ثم رحل لكنها لمن يفهم غريبة جدًّا وعظيمة جدا، ومعبرة.. قال الرجل: لولا الزمان لكان المكان كتلة مصمتة.. هذه الجملة تجعله يشعر بالزمان أكثر، لكن يفهمه أقل.. يلمسه في نفسه والكائنات والعالم، لكنه رغم ذلك يصبح مبهما أكثر!

كل هذه الحيرة تركها خالد ورحل.. رحل على أريكته التي شهدت الأشهر الأخيرة من آلامه وأوجاعه النفسية العظيمة..

ربما وضح كل شيءٍ له.. عظمة الآخرة لا فقط في نعيم الحور والأنهار والأكل والشرب.. بل في الوضوح والفهم والنور الذي يغشى عقول حيارى الدنيا، فيرون ببصر حديدي.. هل تدرك لماذا الدنيا لا تساوي جناح بعوضة؟.. لأن عظائم أمورها حقائر بالنسبة لمن يفلت منها ليلجَ عالم الوفرة والكمال.

لماذا يتفلسف الأحياء حول الموت في حين أنه "عملية لا اكتراث" تامة بالعالم الأرضي وما فيه ومن عليه؟

يحيط كل شيء خالدًا ولا يحيط هو شيئا، نقصد هنا إحاطة العلم.. تظل العقارب تنهب مدارها في إصرار ويظل باقيًا في مكانه لمدة يومين.. يفسد الجسد، تهضمه الأكلة.. يشيع العفن.. في الموت أيضًا حركة.. إنه لم يكن بمثل هذا الانتفاخ بالأمس، أو أول أمس.. يتعلم الحيوانات التواصل عن طريق الرائحة الخافتة الضعيفة، لكن الإنسان اضمحلت لديه تلك الحاسة.. يعبر خالد في البداية عن وضعه برائحة بسيطة ضعيفة، فلا يسمعه أحد.. يأتي الدائنون يصرخون على الباب ولا يشمون.. يخبطون بأياديهم وأرجلهم، في حين أن جسد خالد قاصر لا يستطيع الحركة أو حتى التنويه بعدم قدرته..

تزداد حدة الرائحة، ويزداد سخط الناس فتضعف حاسة شمهم.. لا يلتقط نداء الرائحة سوى المحبين.. نوران.. يقلقها صمته التام، سكوته المستفزّ.. تتنامى رائحة غريبة إلى خياشيمها.. تلتقط رسالته فتحاول بمساعدة الجيران كسر الباب.. ينكسر الباب الذي لم يقدم أمانًا قط لصاحبه.. تهبُّ الرائحة مكثفة ومركزة.. يضع الجميع أيديهم على أنوفهم.. يتراجع البعض وسط سطوة النتن..

تتقدم مبادرة كعادتها نوران.. بادرت في حياته وبادرت في موته.. تجد خالدًا آخر غير الذي كان.. تشك في أنه هو.. ماذا يفعل بنا الموت تقريبا؟.. تجده كقطعة عجين لا ملامح لها، لو شكلتها لتشكلت معك في أيما صورة أردت.

تسأله: لماذا يا خالد؟

لا يرد.. لأول مرة تتمنى منه الرد ولو كان هرطوقيا.. فليرهف بما شاء من الكلم.. فليرفضها وليلفظها كما يشاء.. لكن ليحدث أي فعل، أي رد فعل.. أين أصبحت يا "رديد الفعل"؟

تتذكره حين حدثها منهارًا عن جسد والده المتصلب.. تتذكر وصفه وتفصيله لعمليات تحلل الجسد.. مشكلة الموت أننا نظن دومًا أنه معضلة الآخرين، متأخرًا جدًّا ندرك أنه مشكلتنا ومعضلتنا نحن أيضا.. من يتحدث عن الموت يظن أنه لا يلاقيه، في حين أننا جميعا ملاقينه.. هل كان يتخيل خالد أنه يموت هكذا؟ وأن يكون في هذا الوضع المشين، ليس مشينًا له، لكنه مشين للإنسانية جمعاء؟.. لماذا لم يوارب باب حياته ولو قليلا بحيث يطمئن عليه من يحبونه ويشاركونه قليل حياته؟

من تراه يمشي في الجنازة؟ عشرة أشخاص أغلبهم لا يعرفون بعضهم بعضا.. نوران، ميساء، رفعت، مدحت، البواب.. والقليل ممن لا هوية لهم..

كل شيء يبدأ بعد الموت.. بالنسبة للأموات والأحياء على حدة.. هو حدث فاصل بين مرحلتين في وجود الحي ووجود الميت أيضا.

تتعرفان –ميساء ونوران- على بعضهما.. تدور بينهم الأحاديث الخاطفة.. كلتاهما أحببنه بصدق.. كلتاهما استطعن الولوج إلى عالم هذه النفس المعذبة.. كانتا تريانه بواقعية وبحب حقيقيين، لكنه نظر إليهما كبنات أسطورة جميلة ضربت حولهما لعنة على من يتقدم نحويهما..

تتعجب نوران من خالد الذي احترف تضييع الفرص.. أضاعها هي، فلماذا أضاع ميساء أيضا؟ إنها فتاة ممتازة، يبدو عليها أنها كانت ستغفر نقصه الجسدي مثلها تمامًا وربما بأكثر مما انتوت أن تفعل.. هو آلة مولّدة للخيبة.

تحتفظ نوران بمفكرته، وروايته التي لم تنته.. هل يمكن أن تحوي روايته مفارقة أكبروأعظم مما احتوت حياة خالد نفسه؟ تلاحظ كم السباب والشتائم والثورة والفوضى والعبث والإباحية في روايته.. هل تعذره؟ هو حالة من الاستثناء المحض، حالة من الأعذار الممتدة.. إذا تعلمت أن تعذر أحدًا بإفراط، فيجب أن تستمر هكذا إلى الأبد.. إننا نعذر أعداءنا حين يموتون، فماذا عن أحبائنا؟ إن العذر وقتها يتخذ طابعًا أكثر قدسية، يتحول العذر إلى واجب إلى وله.. فنروح نتذكر أي شيء لنعذر الميت عليها، بحق أو بباطل.. تمامًا مثل الذي تتحول صحيفة سيئاته كلها إلى حسنات فيروح يبالغ في تذكر أخطائه وسقطاته لكي تثقل صحيفة حسناته.

بطله مفرط في قوته الجنسية، يواقع ولا يعد.. يعاشر ولا يألف.. يمرويتماس ولا يقف أو يتأنى ليتعمق.. قليل الفكر، كثير الفعل.. أفعاله طائشة لكنها تلقى صدى عند الجميع.. طائشة لكنها أفعال على أي حال.

بطلته هي مزيج من نوران وميساء.. أو هي هما معا.. حتى اسمها مشتق من اسميهما "ميران".. هو اسم كردي معناه "الرجولة".. من المؤكد أنه تعجب جدًّا من هذا المزج العشوائي لاسمين أنتجا سويًّا اسما آخر ذا معنى دقيق جدًّا وله توابع وأسس وظلال رهيبة في حياة خالد..

في مفكرته وجدت نوران تعليقًا يخص الاسم يقول فيه:

أحاول مزجهما معا، "فتنمزج" طبيعتهما سويًّا بسهولة في العمل الروائي، أجد إشكالية في الاسم.. أحاول اشتقاق لفظ ثالث منهما فأحصل على "ميران" الذي لا أدري حقيقة معناه أو طبيعته أو هو أصلا موجود في لغة ما.. أبحث عن المعنى فأجده اسما كرديا بمعنى "الرجولة".. هل هما معا ما كان ينقصني؟ ما هذه المصادفة الغريبة المدهشة.. ينقصني شيء حقيقي هما معا يكملانه مجازيا.. هل الحياة لعبة حقيقة أم مجاز؟.. ما المجاز؟ وما الحقيقة؟.. وما العلاقة بينهما؟

ميران هي رمز الفتاة الوجودية القوية الجريئة.. لكنها –على عكس ميساء- تصدت لهذا البطل السطحي جدًّا الذي يستهلك العالم ويظن أنه يهزمه بمضاجعته.. تتأبى البطلة التي ترى نفسها رقما في سجل حافل.. تتعاسر في يده، يندهش البطل، يتغير تغيرا دقيقا بطيئا.. تدرك البطلة هذا التغير فتشد أكثر حتى يفرغ جعبته كلها، حتى يلفظ آخر قطرة صديد بروحه.. وحين يتطهر، وينفض عنه كل شيء، ويعلم أنها حياة وليست رقمًا ثانويا، يموت خالد ويترك الرواية غير مكتملة.. مرة أخرى يكتمل الخيال بالواقع..

ترسل نوران بمسودة الرواية الناقصة لميساء.. تنبهر بجمال الرواية –أو على وجه الدقة جمال قبحها- وأسلوبها الأدبي الغريب المستفزّ.. الرواية لا تستقرّ.. بحر لا اتجاه يصب فيه.. موجه يتجه عشوائيا إلى كل مكان وإلى اللا مكان أيضا..

لو وضعت فيه سفينة لما أدركت تحديدا أين يمكن أن تستقر تلك السفينة.. لا يكتفي البحر بأنه بحر دائما، بل يتفرع ويتخذ مسارات ضيقة أو واسعة حسب الوضع.. فتجد نفسك على حين غفلة محصورًا داخل جدول ضيّق، يتوه بك بتعاريجه اللا نهائية.. أو تصل أحيانًا إلى درب مائي مسدود في نهايته.. أو أنت وسط مستنقع حيث تكاثف الماء وثقل، وأسنت المياه وتعطّنت.. في البحر، يوجد كل شيء؛ الأسماك الصغيرة والكبيرة والوحوش ذوات الوجوه المخيفة.. كل هؤلاء ليسوا شيئا آخر غيرنا نحن.. حين نخلع الأقنعة ونفح في وجه بعضنا، أو نعرض أنيابنا، أو نصعق من يمر بجوارنا.. مياه البحر هنا مالحة وعذبة أيضا.. مالحة بآثامنا وعيوبنا وقبحنا.. وعذبة بالجمال الباقي الذي يحاول السطوع والسيطرة لكنه يفشل منذ بدء الخليقة.. فيبقى أثره فرديا على بعض الأشخاص القلائل، بينما يكون أثر القبح عالميا، ممنهجا، مدروسا..

اتفقتا على سعيهما لنشر هذه الرواية بعد وضع نهاية مناسبة ومعقولة أو تركها كما هي.. نعم هي نهاية تقليدية جدا، لكنها تصلح أن تكون نهاية على أي حال.. بدا أن خالد كان سيمدّ أطراف خيوط الرواية لتكتسب أبعادًا أخرى، لكن المتاح يقضي الغرض.

ما اختلفتا حوله هو جرعات التجديف والجنس والبذاءة داخل العمل.. ترى ميساء أن العمل لا بد وأن يصل للجمهور بالشكل الذي أراده خالد تمامًا دون نقصان، فهو هكذا صورة ناطقة تعبر عن ثورة خالد التي أرادت دوما الانفجار لكنه كان يكبحها.. أما نوران فكانت محافظة جدًّا ورأت ضرورة تنقيحها وتهذيبها بالقدر الذي لا يخل بالمضمون، وكفى خالد ما فعل وارتكب.

في النهاية قررتا سويا عرض الرواية على أديب معروف يفتي فيما اختلفتا فيه، بعد أن يقيم العمل أدبيًّا ويرى مدى ملائمته للوضع والظرف الحالي.

ساعد الجيران والأصحاب وميساء نوران على تسديد ديون خالد، وسامح بعض الدائنين في حقهم.. بعد الموت لا تدري مدى الخير الذي يتفجر فجأة في قلوب الناس.. لماذا لسنا نحن الأحياء رحماء سويًّا كما نحن مع الأموات؟!

هذا الانحياز التام للموت والأموات.. لماذا؟ لماذا لا ينحاز الإنسان للإنسان في الوقت المناسب، في حياته كما بعد موته؟

حتى العلم لا يخلو من تلك العنصرية، يخبرنا دومًا عن المواد الكيميائية المعينة التي يفرزها المخ ليتغلب بها على آلام الاحتضار.. دومًا يحدثونا عن تلك المواد، التي تخفّف حدة الأشياء التي تقع وراء بوابة الموت.. لا أحد يخبرنا قط عن المواد الكيميائية التي تفرز كي يواجه الإنسان الحياة.. المواد التي نفرزها حين نولد كي نواجه أكبر كابوس في تاريخ البشرية.. عندما نفقد أعزاءنا، ماذا يفعل المخ وقتها؟ ولماذا يصر الجميع على معاملة الأحياء على أنهم جماعة من الحمقى المرفّهين، فقط لأنهم أحياء؟

إن ربع الود والتسامح الذي لاقاه خالد بعد موته كان كفيلا بجعله يحيا حياة سوية خالية من العقد والآلام.. نتمنى أنه حين نموت جميعا نستطيع وقتها أن نحقق المعادلة البسيطة السهلة المستحيلة التي فشلنا طول حياتنا في تحقيقها.. فقط أن نتفهم أوضاع بعض، ونحترم انحيازاتنا بغض النظر عن أي شيء آخر.

(١٣)
الخاتمة

ألا إن الحياة لا محال.. خيال في خيال في خيال.

الجيلي

بعد عام بالتمام من حادثة وفاة خالد، وَلَجَتْ امرأةٌ ممتلئة تلك العمارة التي كان يسكنها ذات يوم.. كانت ترتدي نظارة شمس سوداء.. بدت عليها علامات الكبر ورغادة العيش كذلك.. سألت عن شقة نوران، توجهت إليها، طرقت الباب، ففتحت نوران لها..

سألتها إن كانت تستطيع أن تقدم لها أي خدمة فأجابت:

- خدمات يا بنتي.. خدمات.

أذنت نوران للمرأة بالدخول وسألتها ماذا تشرب.. شكرتها بلطف محاولة الإيجاز والدخول مباشرة في الموضوع الذي جاءت إليها من أجله..

- أنا زينب محمد عبد السلام.
- أهلا وسهلا بحضرتك.
- ممكن متكونيش تعرفيني.. لا هو أكيد إنك متعرفنيش ولا أي حد على ما أعتقد.. أنا يا بنتي أم خالد الله يرحمه.

نزل الخبر كالصاعقة على نوران التي لم تكد تصدّق ما تقوله المرأة.. أم خالد؟ خالد من؟

- أنا إلي أعرفه إن والدة خالد توفت من زمان.

تحدثت المرأة وتركت لنفسها العنان.. أخبرتها بالتفاصيل الغائبة والأسرار التي كانت قد أغلق دونها ألف باب حديدي.. أخبرتها عن فتاة العشرين التي تزوجت من شاب في الخامسة والثلاثين مؤملة فيه العثور على الجزء الناقص من حياتها، أن يملأ الفراغ الذي تحياه بدون أب أو أم، مع خال وزوجة خال أعياهما الزرع والحرث في أرض ليست أرضهما.. عن الزواج الذي تم تحت ضغوط كثيرة من كل المعارف والأقارب القلائل الذين وجدوا في هذه الزيجة راحة للجميع، وخلاصًا مما أرهقهم حمله.. عن عدم استعدادها للزواج آنئذ وطموحها لتكملة دراستها والعمل كي تضمن حياة مستقلة لا تعتمد فيها على اللا أحد الباقي لها.. عن الزوج الذي صدمها بممارسات غريبة.. في العلاقات الحميمة وفي الأفعال.. عن محاولاتها لامتصاص القدر الأكبر من المأساة كي ينصلح الحال وتستقر الأمور.. وعن التجاهل واللا مبالاة من "عصمت"-أبو خالد- الذي ضاع عقله وراح يهذي بكلام كفري غريب.. عن سعيها لميلاد الطفل القادم وتوفير حياة كريمة سوية له.. عن إخفاقها في تحقيق ما أرادت قبل الزواج، وفشلها في تحقيق ما تمنت بعد الزواج.. حتى إنها لم تحافظ بالشكل الكافي على ابنها، باكورة ثمرات أرضها..

ثم كان ما كان.. القرار النهائي بالانفصال والزواج من رجل آخر أخذها وسافر بها إلى إحدى دول الخليج حيث عاشت أغلب حياتها، وحيث رزقت بأبنائها الثلاث: جلال ونور وريم.

أخبرتها نوران مدهوشة عن فكرة خالد الغريبة جدًّا عن وجود أخوة له في عالم موازٍ.. سماهم بذات الأسماء.. هذا العالم فعلا أكبر مما نفهم وأغرب مما نتخيل، وأغمض من أن نسيطر عليه تماما..

لا يوجد تفسير لهذه البصيرة التي أنارت لخالد ظلمات عالم شاسع رهيب.. لينفذ عبر الزمان والمكان ويدرك بشكل غير منطقي أن له مشاركين في ميراث العلاقات الإنسانية هم إخوته.. هل كان خالد قطبًا صوفيًّا لم نقابله باللائق والمناسب له؟ الله محيّر في رحمته جدا.. ولأنه الله فإن أحكامه لا تخضع لتأويلاتنا ومحاولات فرزنا لها وتصنيفها وتحديدها بحدود علمنا ومعارفنا..

ما علمه خالد بشكل ما هو بالطبع نوع خاص من العلم اللدني.. فتحت أي قاعدة يخضع عطاء الله، وتتم فتوحاته وكشوفاته؟

اندهشت الأم التي أكل صدرها الحنين إلى ولد مات مأزومًا بفقدها.. مات مغمومًا بغيابها.. لكنه كان سعيدا جدًّا –ربما– لأنه سيقابلها حيث يليق بالأحبة أن يتقابلوا فيما بعد الحياة.. يا خالد ستذهب ولن تجدها.. لماذا تطاردك المقالب حتى إلى ما بعد الموت؟

ماذا أنت أيها الرجل؟.. هل أنت النحس المركب؟

لماذا تظلّ تدهشنا وتجدد أوجاعنا الخاصة بك حتى بعد وفاتك؟ أمك ها هي أمامي.. ماذا أفعل وماذا ستفعل أنت حين يفجئك الأمر هناك؟ سل أباك عن الأمر يا خالد.. حل ما لم تستطع الحياة حله.. معك ومع أبيك وقت كافٍ لفهم هذه الأحجية، هذا اللغز.. لماذا صنعناه بخطوات غبية بطيئة، ضعيفة؟ لكنها مثابرة جدًّا في غيها؟

لم تعرف الأم بمكان ولدها إلا بعد وفاته حين جاءها إعلان من المحكمة بخصوص الميراث.. جاء الجواب مختومًا مهيبا ليرد عليها ضالتها بعد أن ضلت، وبعد أن ضل ضلالها، وبعد أن لم يعد للاهتداء جدوى؟.. ضاع منها ابنها وها هي تهتدي إلى ميراثه.. الشقة التي قضى فيها أوجاع وحدته لا يرحمه أحد، التي مات فيها وتحلّل دون أن يترحم عليه أحد، التي بقى فيها أياماً وأياماً دون أن يراعي طلباته أحد..

لم يكن قد مر على وصولها إلى بلدها إلا بضعة أشهر.. حاولت خلالهما إيجاد أي خيط يصلها بخالد دون جدوى..

كان يشغل بالها كل هذه السنين تلك القسوة التي حطت بقلب زوجها الأول.. لماذا أوصد دونها كل الأبواب.. لماذا رفض الوصل بينها وبين ابنها، الذي احتاجته كثيرًا واحتاجها حد الموت؟

لماذا أخذ خلافهما الطبيعي جدًّا مأخذا شديد الحساسية ورآه ماسًّا لكرامته بشدة؟ وكيف لم تلِنْ السنون عريكته وترطب من ضغناء قلبه؟ لماذا كان رد فعله المبالغ جدًّا والأقرب إلى الهزل بإدعائه أني متُّ ليحيا ولده في كنفه مفتقدا كل حقوق الطفل في وجود أمه بجانبه؟ سامحك الله يا عصمت كم كانت ردود فعلك عجيبة لا تتوافق قط والواقع.. كانت كلماته وحركاته وأفعاله مسرحية بشكل مستفز!

لماذا فعل عصمت ما فعل؟
ثلاثون عاما من التيه.. من الاشتياق إلى ولدها..

في الغربة، عرفت أنه أخذ الولد وسافر إلى اليونان عن طريق خالها الذي سرعان ما توفى ثم لحقته زوجته لتنقطع كل صلتها بمصر.. كم مرة حاولت النزول ومعاودة البحث.. لكن المسئوليات ولقمة العيش والحياة التي كونتها، كل ذلك كان يعيقها ويقف حائلا.. تاهت السكك وتداخلت الطرقات.. وأصبحت الخطوة التي تأخذها لإدراك حضن ابنها خطوة إلى الوراء، مهما بدا لها الأمر أنها تتقدم للأمام.. تندفع بقوة فرد ناحية ابنها، لتتأخر بقوة ألف حصان إلى الخلف.

حين رزقت بأبنائها الثلاث ظنت أنها تعوض الفقد.. لكن الحقيقة أن علاقة الأم بأولادها علاقة كيفية وليست كمية.. ألف ابن لا يغنون عن حب واحد مهما حدث.. وهكذا امتلأ قلبها بحب الثلاثة وبقي مكان خالد فارغًا، قاتمًا، كثقب أسود لا يدع شيئًا يهنأ إذا ما مر بجواره.

كل الحب الذي منحته لأولادها كان سيفًا على رقبتها يذكرها بإثم نسيان خالد أو تناسيه.. بخطيئة ابتعادها عنه في حين يكتوي هو بآلام لا تبرحه.. بذنب لم ترتكبه لكنها دلفت إليه وحاصرتها العقبات لكي لا تكفر عنه.. لماذا اندفع النهر وأخذ معه خالد في حين بقت سفينتها مغروسة في قلب الطين متعطلة عن الحركة أو السعي؟

باعت الأم الشقة بثمن بخس.. لم تستطع أن تتحمل رائحة وجوده الذي يكتم على أنفاسها، لم تطق خيالاته وأشباحه التي تظهر لها باكية متوحدة، تصرخ بلا صوت وتبكي بلا دموع.. حملت معها بعض بقاياه.. أوراقه التي حاول من خلالها ثقب الحصار، التي كان يتنفس من خلال فجواتها هواء نقيًّا يربطه بالمطلق وبعالم ما بعد العالم.. استطاعت من يومياته وروايته معرفة حقيقة إحساسه وشعوره.. كان يكتب بدم روحه، بدموع السماء عليه..

كنا نحن نعيش لنأكل ونشرب ونتكاثر مضيفين إلى وجودنا، وكان هو يثمل ويكتب ويدخن لينفي وجوده لتخف طينته، ليتلاشى في نقطة خيالية تكون فيها النفس أثقل ما يكون والجسد أخف ما يكون.

استوعبت الأم جيدًا دور نوران في حياة خالد.. شكرتها أن حاولت ملأ الفراغ ومداواة الجرح حين كان ألزم لها هي الأم أن تفعل.. لكن دور الحبيبة كما دور الأم مقدس.

تنازلت زينب عن حقوق طبع الرواية وأرباحها لنوران.. كان حظ الرواية على نقيض حظ صاحبها.. لاقت شيوعًا وانتشارًا عظيمين.. كتب عنها بعض النقاد كلاما مستحسنًا.. وانتشرت التساؤلات حول ما إذا امتد عمر مؤلفها لأمدنا بأدب جديد غير مسبوق..

وافقت نوران على حقوق نشر الرواية على شرط أن تصرف عائدها فيما تراه صالحا.. لذا فقد كرست كل دخلها لكفالة طفل يتيم في ملجأ لعل ذلك يكون رحمة على روح خالد المضطرب.

هل كان يمكن لنوران أن تظل هكذا إلى الأبد؟ كانت تدافع عن شخص محطم، واجهت صعوبات من أجله، تفهم أهلها –على مضض– نيتها وفعلها.. لكن إلى متى يمكن لهم تفهم تضحيتها؟ شهر، اثنان، سنة ربما.. لكن الحياة يجب أن تسير والنهر لا يمكن أن يتجمد حين تكون متطلبات الحياة حارة وفاعلة.. سترضخ، وستتغلب إرادة الحياة.. ستتزوج وتنجب لكن ظل خالد لن يبرحها.. خالد المعضلة.. حبه تحول إلى شغف صوفي غريب بداخلها.. يتبدى لها في أحلام يقظة نورانيا بالكامل.. يبتسم ولا يتكلم.. يشاغلها ولا يقاطعها.. ينظر إلى ابنها الصغير خالد ويضحك ضحكة بريئة متفهمة محفزة..

تظل تنظر إليه.. تحادثه بدون كلمات:

- سميته خالدًا متحدية كل شيء.

يحرك رأسه.. تصلها فكرة عابرة منه:

- كوني دوما بجانبه.. انفضي عنه الشرور والنحس والحظوظ الكئيبة.. لا تجعليه مثلي.. أفهميه كل شيء، وضعيه على بر آمن.. لا تقذفي به إلى اليَمّ، لا تعتمدي على وجود خادمة زوجة فرعون.. اليم يبلع ولا يهدهد.

لم تكن تجربة خالد مما يمكن أن يمر هكذا على نوران.. تعلمت منها أشياء كثيرة، لم تستطع فهم كل كلامه إلا بعد أن مات.. كانت تسترجع جمله وتفكّكها بعقلها لتجد فيها معاني غير المعاني وآفاق غير الآفاق.. تعودت على التأمل واستذكار مواقفهما لتعيد تقييمها.. أحبت القراءة الواعية وانتوت تربية أولادها عليها.. احتفظت بمكتبة خالد التي كانت تحكي عنه أكثر مما كان يحكي هو عن نفسه..

تسامى حبها لخالد ليصبح عشقا أفلاطونيا، انتقلت فيه من عشق الصورة إلى عشق الأصل، من عشق الأشياء إلى عشق الأفكار..

ذات يوم قرأت في أوراقه خاطرة تخصها.. حين سألته بعد وفاة والده عما ينتوي فعله.. حول الموقف بعبقرية إلى فن خالص.. حفظتها عن ظهر قلب.. كانت ترددها كلما أحست بخفة الحياة ونَزَقِها.. حين تضيق الحياة عليها جدا، أو تتسع هي جدًّا حتى لتستوعب الحياة وما فيها..

كان يقول في خاطرته:
سألتني: ثم ماذا بعد كل ما حدث؟
فقلت: لا شئ، رقعة أقل من الحياة، نور أقل، هواء أقل.
قالت: لكن أليس هذا ما حدث بعد خيبة الظن الأولى؟
- نعم هذا ما يحدث بعد كل خيبة.
- وماذا تعتقد في القادم؟
- كل شيء أقل مرة أخرى.. أضعاف من الفقد والخسارة الفادحة.
- إلى أي مدى؟
- إلى المدى الذي يتلاشى فيه وجودي وأصبح نقطة في صفحة، منقوطة بقلم رصاص يأتي طفل أهوج ليمسحها نهائيا فتعود الصفحة بيضاء ناصعة، وأنا أمسي عدما تاما.

كان مثل هذا الكلام يضايقها فيما قبل.. لكن بعد أن يتحول الإنسان نجد المعاني الدقيقة التي تتحرّر من ثقل وجوده المادي الثقيل.. يبدو أن فكر الإنسان يبقى مختنقًا من وطأة الجسد، يتزاحمان على نطاق مقسوم بدقة جبرية، ككرسي لا يسع اثنين.. فإذا ما فنى الجسد تضاعف الفكر بحالته الغازية، تتضح معالمه حين يسعه حيز أكبر.. إن مكانك بعد الموت لا يفرغ، لكنك تبقى بمقدار ما تترك من فكر.

في خاطرة له كتب:

سألتني: ما الجنة؟
قلت:
- أن تجدي نفسك في الوقت الصحيح!

- والجحيم؟

- هو أن تجدينها في الوقت الخطأ!

- إذن فكلاهما لقاء بالذات.. فماذا عن الأنهاروالنيران، والنعيم المادي والعذاب النفسي؟

قلت:

- كل ذلك تفاصيل على متن، حَواشٍ توضح النص!

تمنت بينها وبين نفسها أن يعفو الله عنه.. أن يجد نفسه.. وألا يتوه أحد قط توهته.. تعلمت دعاءه الذي كان يدعوه خفية في حالات قربه الشديد من ربه فيقول:

الإنسان يا رب، ليس أنا فقط!

فهل يا رب يمكن أن يشفع فيه هذا الدعاء، وتلك النظرة الإنسانية العامة، التي وسعتنا جميعا، لكننا لم نسعها بما يليق ولم ندفعها إلى رحابك ولم ننقذها من الغي؟

ما بعد الخاتمة

كان لا بد لهذه الحكاية أن تتم.. أن تجتمع مشاهداتها ومروياتها معا لتكون حدثا عظيما بقدر غرابته.. لم يكن الاستقصاء سهلا، ولا الاستماع قصيرا.. الجلسات طالت والأسرار برزت فكان لا مندوحة من أن تتكامل وتتعاشق أجزاؤها، وتستبين الأجزاء الغائبة.

كانت التحقيقات طويلة.. والمذكرات كثيرة –ربما ألف صفحة– فأخذنا من كل مصدر شيئا لتتوالف قصة خالد..

ساعات من الأحاديث السرية وتحقيقات النيابة لنفي وجود أي شبهة جنائية.. قال الجميع ما يعرفون.. أسروا بكل الهواجس والمعلومات؛ ليحيا خالد مرة أخرى.. مرة أخرى خالدة بحق.

بدأ الأمر حين نجحت روايته العصماء ولفتت الأنظار وصمم الكثيرون على البحث عن صاحب هذه الدرة الأدبية؛ فوعدتهم بتوليف الحكاية حوله وخلق مزيج متجانس منها.. وتنظيمها بحيث تصبح حياته ذاتها قصة عظيمة.. فهو قد خلد مؤلفًا لروايته، وخلد بطلا لقصته الشخصية.. خالد بطل بخياله وواقعه الذي هو أغرب من خياله.. خالد حين ألف، وحين ألف حوله عمل.. بالرواية التي خلقها والتي خلقت عنه... ليس خالد هو فقط ما كتب عنه.. خالد أكثر من كل هذا بكثير.. لكن –وعلى أي حال- لا مناصة من الاختيار والسبك.

فطوبى لك يا خالد حيا وميتا!

تمت.

اللزج
٢٠١٨/٨/٩
نوران - مصر الجديدة

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017